المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

أسس الدفاع
عن أبي تمام في كتاب النظام
لابن المستوفي (المتوفى٦٣٧ هـ) قراءة بلاغية

The foundations of defending Abu Tammam in the book Al-Nizam by Ibn Al-Mustafi (Died 637 AH) A rhetorical reading

بقلم الدكتور

خالد أحمد محمد حسن

مدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا
جامعة الأزهر الشريف - جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

أسس الدفاع عن أبي تمام في كتاب النظام لابن المستوفي (المتوفى ٦٣٧هـ) قراءة بلاغية

خالد أحمد محمد حسن

قسم البلاغة والنقد - بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا - جامعة الأزهر الشريف - جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: khaledhassan.7620@azhar.edu.eg

الملخص

يسعى البحث في مجمله إلى توضيح كيفية استخدام البلاغة كأداة دفاعية تدعم شعر أبي تمام وتبرز قيمته الفنية، فهو يتناول الأسس البلاغية التي اعتمد عليها ابن المستوفي في الدفاع عن أبي تمام في كتابه النظام، ويركز البحث على كيفية استثمار الألوان البلاغية المختلفة مثل: الاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي في تعزيز مكانة أبي تمام، والرد على الانتقادات التي وُجهت لشعره، كما يعالج البحث مسألة صحة الصورة البلاغية في شعر أبي تمام، ويبرز كيفية تماسك الصور البلاغية وتفاعلها مع المعنى المقصود، مستندًا إلى تحليل نقدي لرأي أئمة النقاد من أمثال الآمدي والقاضي الجرجاني وابن المستوفي.

الكلمات المفتاحية: كتاب النظام لابن المستوفي، الآمدي، أبو تمام، الأسس البلاغية، الخصومات البلاغية.

The foundations of defending Abu Tammam in the book Al-Nizam by Ibn Al-Mustafi (Died 637 AH) A rhetorical reading

Khaled Ahmed Mohamed Hassan
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Islamic and Arab Studies in Qena - Al-Azhar University - Arab Republic of Egypt
Email: khaledhassan.7620@azhar.edu.eg

Abstract

The research as a whole seeks to clarify how to use rhetoric as a defensive tool that supports Abu Tammam's poetry and highlights its artistic value. It deals with the rhetorical foundations that Ibn al-Mustafi relied on in defending Abu Tammam in his book The System. The research focuses on how to exploit different rhetorical colors such as: metaphor and transmitted metaphor. And the mental metaphor in strengthening Abu Tammam's position, and responding to the criticisms directed at his poetry. The research also addresses the issue of the validity of the rhetorical image in Abu Tammam's poetry, and highlights how the rhetorical images cohere and interact with the intended meaning, based on a critical analysis of the opinion of the imams of critics such as Al-Amdi, Al-Qadi Al-Jurjani, and Ibn The fulfiller.

Keywords: The Book of System by Ibn Al-Mustafi, Al-Amdi, Abu Tammam, rhetorical foundations, rhetorical disputes.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على توفيقه لنعمة الحمد، وصلاة وسلامًا على مبعوثه رحمة للأنام، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد:

فتراثنا الشعري حافل بشعراء ذاعت شهرتهم في الآفاق، وكتب لشعرهم الذيوع والخلود، فاهتم بعض العلماء من ذوي الذوق وأرباب الحس الجمالي الصادق بشرح أشعارهم، وبيان ما فيها من ألوان الإبداع وضروب الإحسان في الإنشاد.

ومن هذا التراث كتاب((النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام)) لابن المستوفي المتوفى (٦٣٧هـ)، وهو من الأعمال الجليلة التي تحوي آراء قيمة فيما يتعلق بالشاعرين العظيمين، وقد اخترت من تلك الآراء ما هو ذو صبغة بلاغية في الدفاع عن أبي تمام، سواء أكانت من آراء ابن المستوفي أم من آراء غيره من النابهين كالمرزوقي والمرتضى.

وقد تمتع ابن المستوفي في الكتاب بالجمع والاستقصاء والتدقيق لما يثبته من آراء والمعرفة اللغوية والأدبية الواسعة ودقة النقد واستحكام المنطق.

ومن دوافع اختيار هذا البحث:

- يمثل كتاب النظام لابن المستوفي أحد أهم المؤلفات النقدية التي تناولت شعر أبي تمام، مما ساهم في إرساء ودعم البلاغة التطبيقية، وتطوير القدرات على التعامل مع النصوص الشعرية.

- تمكن ابن المستوفي والمدافعين عن أبي تمام في كتاب النظام من الذود عنه دون خروج عن عمود الشعر العربي، لاسيما أن الغالبية من النقاد تتهمه بالخروج السافر عن عمود الشعر العربي.
- ما اتسم به ابن المستوفي من اطلاع واسع ومعرفة شاملة وقدرة بالغة على حل مغاليق شعر أبي تمام، وما أشكل من معانيه.
- دراسة الدفاع عن أبي تمام عند ابن المستوفي وغيره من منظور بلاغي يتيح فهمًا أعمق لكيفية تكييف الشعر التجديدي ضمن تقاليد الشعر العربي.

أما عن الأسئلة التي تجيب عنها الدراسة فتتمثل في الآتي:

- ما الأدوات البلاغية التي استخدمت في كتاب النظام للدفاع عن أبي تمام؟ وما مدى توافق هذه الأدوات مع عمود الشعر العربي؟ وكيف تعامل ابن المستوفي وغيره من المدافعين مع المآخذ على أبي تمام من خلال الأسس البلاغية؟ وهل أسهمت في الذود عنه؟.
- ما دور البلاغة التطبيقية في دعم وترسيخ علم البلاغة وتطويرها من خلال الدفاع عن أبي تمام؟.

أما عن منهج الدراسة فهي تقوم على المنهج التحليلي النقدي في تناول الأسس البلاغية التي استخدمها ابن المستوفي في دفاعه عن أبي تمام، ويتمثل هذا المنهج في تحليل النصوص الشعرية لأبي تمام ومآخذ النقاد عليها كما وردت عند ابن المستوفي في كتابه، ودراسة هذه العناصر وفقًا لمعايير البلاغة العربية، وكيف تم توظيف هذه الأساليب للدفاع عن شعر أبي تمام، وتبرير ما قد يراه البعض عيبًا أو خللًا عنده ؟.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة فجاءت تعريفاً موجزاً للدراسة والأسباب الداعية إلى اختيارها، ومنهج الدراسة، والأسئلة التي تجيب عنها.

وأما التمهيد فجاء كلمة موجزة عن "ابن المستوفي" وكتابه " النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام".

وأما مباحث الدراسة، فقد اشتملت على أسس الدفاع عن أبي تمام، وكانت على النحو التالي:

المبحث الأول: الحمل على لون بلاغي.

المبحث الثاني: تحقيق الغرض المقصود.

المبحث الثالث: مراعاة السياق.

المبحث الرابع: مراعاة التناسب.

أما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم،،،،،،

كلمة عن " ابن المستوفي" وكتابه النظام

وهو أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، الملقب شرف الدين، المعروف بابن المستوفي الإربلي[١]، كان وزيرًا لإربل وقاضيها ومؤرخها[٢]، ولد في سنة أربع وستين وخمسمائة[٣] بإربل في النصف من شوال[٤]، وتوفي في المحرم سنة سبع وثلاثين وستمائة[٥].

وكان عارفًا بالعديد من الفنون، منها الحديث وعلومه وأسماء رجاله وجميع ما يتعلق به، وكان الإمام فيها، وبرع في علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه، ولديه المهارة في فنون الأدب من النحو واللغة والعروض وعلم البيان وأشعار العرب وأخبارها وأمثالها[٦].

وكان له يد طولى في النظم والنثر[٧]، وهو كثير المحفوظات مواظبًا على عمل الخير والعبادة، ولي نظر الديوان بإربل، ونزح عنها بعد استيلاء التتار عنها

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان- تحقيق : إحسان عباس – الناشر : دار صادر بيروت – ١٤٧/٤.

(٢) العبر في خبر من غبر للذهبي – تحقيق: الأستاذ فؤاد سيد- طبعة الكويت ١٩٦٠م- ٢٣١/٣.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي- ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي- دار النشر : مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٣ه ، ١٩٩٣م، الطبعة : التاسعة – ٥٠/٢٣.

(٤) التكملة لوفيات النقلة للمنذري- تحقيق: عواد معروف – مؤسسة الرسالة بيروت- الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م- ٥٢٢/٣.

(٥) هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين إسماعيل باشا البغدادي- طبعة استانبول١٩٥١- ١٩٥٥- ٣/٦ .

(٦) وفيات الأعيان١٥١/٤.

(٧) العبر في خبر من غبر ٢٣١/٣.

إلى الموصل[١]، وكان من أحضر الناس دينًا، يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم، ويأبى الرئاسة، يصنع ذلك تقربًا لوجه الله تعالى[٢].

مؤلفاته:

صنف مؤلفات جليلة، منها: كتاب تاريخ إربل، وسماه "نباهة البلد الخامل ومن ورد عليه من الأماثل"[٣]، وكتاب إثبات المحصل من نسبة أبيات المفصل، تناول فيه الأبيات التي استشهد بها الزمخشري في المفصل[٤]، وكتاب في صناعة البديع، وكتاب حاجة الشاعر والكاتب، وفيه تناول ضرورات الشعر، وشيء من علم العروض، وكتاب جامع الأوراق، وهو يتضمن أشعارًا وحكايات وأمثالًا وفوائد[٥]، وكتاب "النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام"[٦] وهو محل دراستنا.

وتميز ابن المستوفي في كتابه النظام بالأمانة العلمية والاستقصاء والدقة في التحري، وهو لا يختلف في تناوله للنصوص الشعرية عن المحدثين في تعاملهم مع النصوص النبوية من ناحية التحقق من النقل ونسبة الأقوال إلى أصحابها، وهذا أثر من آثار التخلق بأخلاق الفقهاء والمحدثين.

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر : عيسى البابي الحلبي- الطبعة الأولى ١٣٨١هـ ١٩٦٤م- ٢٧٢/٢.

(٢) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـ «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان» لابن الشعار الموصلي – تحقيق: كامل سلمان الجبوري – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –الطبعة: الأولى – ٢٠٠٥ م –٤٠/٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٧/ ٣٢٦.

(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان- لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي – وضع حواشيه: خليل المنصور- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م-٧٥/٤.

(٥) قلائد الجمان ٤٠/٥.

(٦) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي تحقيق : عمر عبد السلام التدمري – الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م- ٣٥٢/٤٦.

ووضع ابن المستوفي في هذا الكتاب أهم ما قاله شراح شعر الشاعرين عبر خمسة قرون من نقد وتفسير من أمثال الصولي والخارزنجي والآمدي والمرزوقي وأبي العلاء والقاضي الجرجاني وابن جني وابن فورجة والتبريزي والعكبري(١).

وقد أبان محقق الكتاب جهد ابن المستوفي في كتابه من خلال "خمسة اتجاهات:

أولا: محاولة التثبت من صحة رواية البيت، بعد استعراض رواياته المختلفة، ثم الاستقرار على رواية يعتمدها للشرح.

ثانيا: نقل شروح الشراح الذين تناولوا البيت، وربما يقتصر نقله على ما يراه ضرورياً، ويترك فضول الكلام.

ثالثا: مناقشة الشارح فيما أخطأ فيه أو في الجوانب التي ابتعد فيها عن الصواب، لعدم فهمه لغرض الشاعر أو لخروجه عن جادة الصواب في معالجاته.

رابعًا : نقد خاص به ينصب على شعر الشاعر لخلل أحسه فيه، وقد فات على الشارح فلم يدركه أو يلتفت إليه.

خامسا: شرح خاص به للأبيات التي لم يتناولها من سبقه من الشراح"(٢)

وقد أوضح ابن المستوفي أهدافه من تأليف الكتاب بقوله: " فإني وجدت كثيرًا من الناس يتجاذبون القول فيما أشكل من معاني أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وأبي الطيب أحمد بن الحسين الجعفي لميلهما إلى التكلف وعدولهما غالبا عن العفو إلى المستكره"(٣).

---

(١) مقدمة محقق كتاب النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام للدكتور خلف رشيد نعمان- الناشر: وزارة الثقافة والإعلام ببغداد[سلسلة خزانة التراث] الطبعة الأولى ١٩٨٩م- ١/٧.

(٢) السابق١/١٧٣، وما بعدها.

(٣) النظام ١/ ١٩٢.

المبحث الأول

الحمل على لون بلاغي

وقد استخدمت الألوان البلاغية في الدفاع عن أبي تمام، وهي تثري الصور الشعرية، مما يمنح النص أبعادًا جمالية وإطارًا شعوريًا، ومن الألوان البلاغية التي استخدمت في الدفاع عن أبي تمام، وفسر بها بعض المآخذ عليه.

- **الاستعارة**.

وتعتبر الاستعارة من أهم ألوان البلاغة؛ إذ تعطي النصوص البليغة عمقًا دلاليًا، وتتيح تصوير الأفكار والشعور بشكل أقوى وأكثر تأثيرًا، وتعطي إيحاء شعوريًا، وقد استخدمت الاستعارة في دفع مآخذ عن أبي تمام :

ومن ذلك في قوله:

إِنَّ الخَلِيفَةَ قَدْ عَزَّتْ بِدَوْلَتِهِ دعائمُ الدين، فليعززْ بكَ الأدبُ

إذ يرى الآمدي أن أبا تمام استخدم كلمة (عزت) في موضع لم يستخدم عند العرب، وأن المفردة تزحزت عن دلالتها يقول:" ودعائم الدين قد توصف بأنها ثبتت، وتمكنت، وأقامت، وتوطدت، فهذا هو اللفظ المستعمل فيها، ألا ترى أنها إذا وصفت بضد هذا الوصف قيل: وهت، وسقطت، وخرت، ولا يقال: ذلت."

ويرى الآمدي أن هذا العدول عن الدلالة المعجمية داعيه إحداث الجرس الموسيقي، الناتج عن التكرار يقول: " وإنما قال: عزت، من أجل قوله: (فليعزز بك الأدب)".

ويعلق على ذلك بقوله:" وهذا وإن لم يكن خطأ فليس بجيد؛ لأنه لفظ موضوع في غير موضعه"[١].

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي – تحقيق: السيد أحمد صقر– الناشر: دار المعارف – الطبعة الرابعة [سلسلة ذخائر العرب (٢٥)]– ٣٥٧/٢.

أما ابن المستوفي فيذكر وجهين يصحح من خلالهما ما أنشده أبو تمام، فالوجه الأول يقوم على أن لفظة (عزت) ، ليس في معناه الحقيقي، فهو قد استعار لفظ (عزت) والذي يدور حول المجد والسؤدد للثبات والتمكن، يقول فيه : " وهذا الذي ذكره- أي الآمدي- هو على ما ذكره من أوصاف الدعائم حقيقة، فأما مجازًا فجائز جوازًا حسنًا، هذا إذا كانت لفظة(عزت) ضد لفظة(ذلت) " .

وفضل الاستعارة وجمالها بناء على هذا الرأي هو الدلالة على شدة الثبات والتمكن لدعائم الدين، وأنها تحقق الهدف المرجو منها على أبلغ وجه وأوفاه.

وأما الوجه الآخر المصحح لما أنشده أبو تمام عنده، فهو يرى أن لفظ (عزت) مستخدم في معناه الحقيقي بمعنى القوة والشدة، فيقول فيه ابن المستوفي: " فإن أراد بها الشدة والقوة من قولهم: (مَنْ عَزَّ بَزَّ) ومن التفسير في قوله تعالى: (فَعَزَّزْنَا بِثَالِث)[1] مخففًا ومشددًا، أي قوينا وشددنا، فهو موضوع في موضعه على الحقيقة، خارج عن أن يلحقه ما استدركه الآمدي "[2].

ومن الحمل على الاستعارة، وذلك في الرد على مأخذ في استهجان للفظة في قول أبي تمام:

رَقِيق حَواشِي الْحِلْمِ لَو أَنَّ حِلْمَهُ بكفيكَ ما ماريتَ في أنهُ بردُ

فقد أورد ابن المستوفي ذم الآمدي وصف أبي تمام الحلم بالرقة، إذ يقول الآمدي: " هذا هو الذي أضحك الناس منذ سمعوه وإلى هذا الوقت، ولم يزد على هذا شيئاً، والخطأ في هذا البيت ظاهر".

ويشير كذلك إلى مخالفته المعتاد عند العرب وطرائق تعبيرهم، فيقول: " لأني ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة، ونحو ذلك".

---

(١) يس :١٤.

(٢) النظام ١٠٧/٤-١٠٨.

وذكر الآمدي نماذج من استخدامات النابهين من الشعراء لوصف الحلم بمقابل ما وصف به أبو تمام، كما قال النابغة:

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وكما قال الأخطل:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

وكما قال أبو ذؤيب:

وصبرٌ على حدث النائبات وحلمٌ رزينٌ وقلبٌ ذكي

وقال الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنًا إذا ما نجهل

وقال أيضاً:

إنا لتوزن بالجبال حلومنا ويزيد جاهلنا على الجهال

ويضيف الآمدي : " ألا ترى أنهم إذا ذموا الحلم كيف يصفونه بالخفة؛ فيقولون: خفيف الحلم، وقد خف حلمه؟ وقال عياض بن كثير الضبي:

تنابلةٍ سودٍ خفافٍ حلومهم ذوى نيرب في الحي يغدو ويطرق

وقال عقبة بن هبيرة الأسدي:

أبنى المغيرة قبل آل خويلدٍ يا للرجال لخفة الأحلام

..... فهذه طريقة وصفهم الحلم، وإنما مدحوه بالثقل والرزانة، وذموه بالطيش والخفة".

وأيضاً يقول الآمدي: "إن البُرد لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالمتانة والصّفاقة، وأكثر ما يكون ألواناً مختلفة، كما قال يزيد بن الطثرية:

أشافتك أطلال الدّيار كأنما معارفها بالأبرقين برود

والأبرق والبرقاء من الأرض: ما كان فيها حجارة ورمل؛ فقيل: (برقاء) لاختلاف الألوان فيها"[١].

وأورد ابن المستوفي ما ذكره المرزوقي في كتابه المفقود (الانتصار من ظلمة أبي تمام) مما حاول من خلاله تصحيح ما أنشده أبو تمام، وأن الرقة مستعملة عنده مقام اللطف، فنقل عن المرزوقي أن الرقة تستعمل في الفاخر من الثياب وغيره، وأن الوصاف كانوا يكنون عن أصل الإنسان وجوهره بالثوب، حتى قالوا في الأصلين يتفقان: رقعتهما واحدة، وهما من ثوب واحد، وتوسع بعد ذلك فقيل: جوهر فلان رقيق الحاشية، وعلى هذا قول أبي تمام: (رقت حواشي الدهر فهي تمرمر)، وإذا كان الأمر على هذا صح أن يوصف البرد الكريم بالرقة، وإذا صح ذلك سلم قول أبي تمام من طعن الطاعن، وإنما كان كذلك لأن الرقة منقول عن موضعه ها هنا، كما يقال: فلان رقيق القلب، فهو يراد به الرحمة.

ويخلص المرزوقي من خلال ذلك إلى أن إقامة أبي تمام الرقة مقام اللطف ليس بمستنكر[٢]، فالمرزوقي يرى أن الرقة مجاز عن الرحمة واللطف.

ولم يكتف ابن المستوفي بما ذكره المرزوقي في تصحيح ما أنشده أبو تمام، بل يضيف قولًا آخر خاصًا به، فيقول:" والذي أراده – والله أعلم – أنه أراد أن حلمه لا يشاركه تعنيف ولا تثريب، فيرق للطفه وتركه التقريع بالذنب، وإذا حلم الحليم وعدد ذنوب الذي حلم عنه فهو مذموم الحلم، ويكون حلمه كريهًا، فلهذا قال أبو تمام: (رقيق حواشي الحلم) على الاستعارة"[٣].

فهو يبين أن أبا تمام أراد من التركيب الاستعاري الدلالة على أنه لا يصدر عنه أي تصرف إلا عن حلم ورفق ولين، فجرد الحلم من كل ما من شأنه أن يعكر صفوه ويخالطه مما يفسده.

---

(١) الموازنة ١/١٤٣-١٤٦.

(٢) النظام ٦/٢٥٦-٢٥٧.

(٣) النظام ٦/٢٦٠.

وهكذا يكون الهدف من بيان الحلم ليس مجرد شدة اللين وبالغ الرزانة والأناة.

وقد فطن الدكتور طه حسين إلى ما ذكره ابن المستوفي عندما قال في بيانه لاختلاف صورة الحلم عند أبي تمام عن الصورة الموروثة:(فالرجل الحليم إذن ليس هو الرجل الوقور الثقيل الذي يشبه بالجبل، وإنما هو الرجل الذي يلقي كبار الحوادث مبتسمًا، والذي إذا تحدث إليك عنها أعجبك حديثه رقة وظرفًا على فداحة الحوادث وتكاثف الخطوب، هو هذا الرجل المترف المتمدن إن صح التعبير، وإذن فالحلم في بغداد وفي القرن الثالث للهجرة غير الحلم في البصرة في القرن الأول للهجرة ، فليس غريبًا أن يكون حلم المتحضرين في بغداد رقيق الحواشي)[١].

والتركيب الذي استخدمه أبو تمام تركيب استعاري يصور فيه الحلم بأنه برد للدلالة على تملك الحلم له، وأنه يلفه تمامًا ويستحوذ عليه كما يلف البرد صاحبه ويحتويه.

وقد ذكر كذلك ابن المستوفي أن حاشية البرد أثقل ما فيه فاحترز بقوله: (رقيق)[٢]، فيكون الهدف أيضًا من قوله: (رقيق) حتى يدفع ما يؤدي إلى الثقل في المستعار منه.

وقد أورد ابن المستوفي نموذجًا يدل على أن أبا تمام لم يكن مبتدعًا للتركيب، وإنما حاكي غيره فيه، وهو قول أعرابي:

رقيق حواشي الحلم حين تثوره يريك الهوينى والأمور تطير[٣]

وفي تقديري أن ما ذكره المرزوقي وابن المستوفي يصحح التركيب الاستعاري الذي استخدمه أبو تمام، وهو يناسب – كما صرح طه حسين–

(١) حديث الشعر والنثر د/ طه حسين – الناشر: مؤسسة هنداوي ٢٠١٣م– صـ:١٠٠ وما بعدها.
(٢) النظام ٢٥٩/٦.
(٣) النظام ٢٦١/٦.

المخاطبين من خلفاء وأمراء وقادة في بيئة حضرية، تلفها الرقة وتسيطر عليها في كل جنباتها.

وانطلاقًا من ذلك أيضا نراه في التركيب الاستعاري يجعل الحلم كأنه ثوب يلف صاحبه ويغطيه.

وهذا غير بيئة البداوة التي يسيطر عليها الحياة الفطرية والانسياق الجارف وراء المشاعر المتأججة، ووضوح الانفعالات، وانطلاق السجية عفو الخاطر فيحتاج التحكم في تلك المشاعر إلى بالغ الرزانة والأناة؛ ولذا عبروا عن الحلم والتحكم في المشاعر والعواطف، بالجبل ونحوه مما يدل على الثقل.

ومن الحمل على الاستعارة، وذلك في قوله في وصفه لفرس أهدي له من ممدوحه:

وَبِشُعلَةٍ نَبذٍ كَأَنَّ فَلِيلَها في صَهوَتَيهِ بَدءُ شَيبِ المَفرِقِ

فقد عد الآمدي استخدام أبي تمام للفظ (الشعلة) خطأ، مستدلا بوجهين، ويوضح الوجه الأول، بقوله:" قوله: (فليلها) يريد ما تفرق منها في صهوتيه، والصهوة: موضع اللبد، وهو مقعد الفارس من الفرس، وذلك الموضع أبداً ينحت شعره لغمز السرج إياه فينبت أبيض؛ لأن الجلد ههنا يرق، وأنت تراه في الخيل كلها على اختلاف شياتها، وليس بالبياض المحمود ولا الحسن ولا الجميل".

وأما الوجه الآخر عنده فهو : " أنه جعله شعلة، والشعلة لا تكون إلا في الناصية أو الذنب، وهو أن يبيض عرضها وناحية منها، فيقال: فرس أشعل وشعلاء، وذلك عيبٌ من عيوب الخيل، فإن كان ظهر الفرس أبيض خلقةً فهو أرحل، ولا يقال أشعل"(١).

(١) الموازنة ٥٩/١.

وقارن الآمدي بين أبي تمام وبين البحتري في هذا المعنى فيما نقله ابن المستوفي عنه من كتابه المفقود في تفسير أبيات أبي تمام فقال: " وقد أخذ البحتري هذا المعنى وأتى به على غاية ما يكون من الحلاوة والحسن، فقال:

في شُعْلَةٍ كالشّيبِ لاحَ بمَفْرِقي غَزَلٌ لهَا عَنْ شَيْبِهِ بِغَرَامِهِ

(لها)على لغة طيّ، فجعل الشعل في موضعه؛ لأنه أراد الناصية، إلا أنه أخرجه مخرج المدح، وهو عيب في الخيل؛ لأنه فرس حمل عليه " محمد بن يوسف" فأراد أن يعلمه أن ذلك حسن غير معيب ..... ولما شبه الشعر في ناصيته بالشيب في مفرق الرجل الغزل اعتذر للرجل بأن جعل لهى عن خضابه وتعييره بغرامه، أي بلهوه وغزله، وهذا وإن كان الشعل عيبًا في الخيل من أحسن تشبيه وأليقه وأوقعه في موقعه".

وهذا يدل على أنه يذهب إلى أن كون هذا الفرس الأشعل هدية وعطاء من ممدوحه قد جعله يذهل عما فيه من عيب كالشيب الذي يذهل صاحبه عنه وعن المعايرة به وعده عيبًا من أجل غرامه.

وبعد أن فرغ من المقارنة بين الطائيين، وتفضيل صنيع البحتري، يضيف في تخطئة أبي تمام: " وأي شيء في بياض صهوة الفرس من الحسن حتى يذكر؛ لأن هذا الموضع إنما يبيض لغمز السرج إياه، وأي نسبة أو قرب بين صهوة الفرس ومفرق الإنسان".

وقد رأى ابن المستوفي أنه قد استعار الشعلة للصهوة، يقول مبينًا فائدة الاستعارة: " واستعار أبو تمام الشعلة للصهوة ليدل على أن الفرس كان جوادًا، يكثر ركوبه في الوقائع، فيكون ذلك دلالة على شجاعة ممدوحه الذي أمطاه إياه ".

ويضيف مبيناً حسن التصرف في بنية الاستعارة عند أبي تمام :" فابيض- أي الفرس- من موضع صهوته القليل بقوله:(نبذ) وهو الشيء اليسير، وزاده قلة بقوله:(كأن فليلها) فشبهه ببدو الشيب لقلته".

ويقارن بين هذا التصرف وصنيع البحتري، فيقول معقبًا على تصرف أبي تمام السابق: " وهو أولى من قول البحتري: (في شعلة كالشيب) لأن الأكثر الغالب أن تكون الشعلة بياضًا في الذنب، وشبهها بحملها بحمله الشيب، وإذا كانت الشعلة عند الآمدي عيبًا فذكر القليل منها أجود من ذكر الكثير".

ولم يرق لابن المستوفي التصرف الذي من خلاله استحسن الآمدي قول البحتري، فيقول عنه أنه: " احتجاج ظاهر عنه عذره؛ لأن حمل محمد البحتري على هذا الفرس لا يزيل ما فيه من عيب"(١).

وفي تقديري أن استعمال أبي تمام للشعل لا شيء فيه من الخطأ؛ ذلك لأنه لم يقصد كما ذكر ابن المستوفي المعنى الحقيقي للشعلة، بل هو استعارة للصهوة .

أما تساؤل الآمدي عن صلة القرب بين الصهوة ومفرق الإنسان فإن القربى تظهر عند ملاحظة الجامع بين المعنى الحقيقي والاستعاري، وهو البياض في كل منهما.

وإذا كان أبو تمام قد قصد إلى المعنى الاستعاري فإن البحتري كما يذكر الآمدي في الشاهد الذي قارن بينه وبين قول أبي تمام قد قصد إلى المعنى الحقيقي، ولكنه اصطنع صنيعًا يحسن القبح عن طريق الصورة التشبيهية(كالشيب مر بمفرقي....) الدالة على أن البحتري ذهل عما في هذا العطاء من عيب لأجل كونه من الممدوح، وهذا دال على مدى الحب والتقدير والوفاء من البحتري لممدوحه، فهو يقبل ما يعطيه مهما كان، ويتيه به غرامًا وهيامًا، ويحقق له نشوة ولذة وسعادة بالغة، ولذا حق للآمدي أن يجعله من أحسن التشبيه وأوقعه في النفس.

وبذلك يكون تعبير البحتري له ما يؤيده واحتجاجه ليس كما ذهب ابن المستوفي ظاهر عنه عذره، بل ظاهره دليله، وتأيد بفائدته، ذاك أن لصنيعه دلالات تغني المراد وتحقق المرام.

---

(١) النظام ١١/ ٣٠٧- ٣١٠.

ونستطيع القول أنه قد وفق الطائيان، كلاهما في موضعه، وكل منهما في زاوية تطلب هدفها المباين لما عند الآخر، وتلتقي مع سياقها الخاص بها، فالشاهد عند أبي تمام هو البيت الثالث من سياق وصف الفرس، فقبله قوله:

ما مقربٌ يختالُ في أشطانهِ مَلآنُ مِنْ صلَفٍ بهِ وتَلَهْوق

بحَوَافِرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ وأشاعرٍ شعرٍ وخلقٍ أخلق

فالسياق السابق وصف لقدرات يمتلكها الفرس ويحوزها تجعله قادرًا على مجابهة الشدائد والأهوال، وانسجامًا مع ذلك تأتي الصورة الاستعارية السابق الإشارة إليها لتقدم الدليل والبراهين على كثرة مجابهته للأهوال وما تركته الحروب على صهوته.

أما عند البحتري فإن الأمر يختلف شيئًا ما، فهو على الرغم من وصفه للقدرات الهائلة للفرس، إلا أنه في السياق السابق حديث عن إهداء الفرس من ممدوحه له، وراجع قوله فيما سبق الشاهد من سياق، وهو قوله:

وَإذا أرَدْتَ لَبِسْتُ منكَ مَوَاهِباً يُنْشَرْنَ نَشْرَ الوَرْدِ مِنْ أكْمَامِهِ

أمّا الجَوَادُ، فَقَدْ بلَوْنَا يَوْمَهُ وكَفَى بِيَوْمٍ مُخْبِراً عَنْ عَامِهِ[1]

فالمناسب أن يجرد هذا الإهداء من كل عيب يلاحقه، ويزدريه، ويغالب أحاسيس مجبولًا في النفس كراهتها، فجعل هذا الفرس الأشعل مثارًا للبهجة والسرور به، ولم يهتم بما فيه من عيب، مثلما لا يعير الرجل المعايرة بشيبه من أجل غزله وغرامه.

وللتدليل على أن البحتري يريد من تشبيهه تحسين صورة الفرس، قوله السابق في مطلع حديثه عن هبات الممدوح: (يُنْشَرْنَ نَشْرَ الوَرْدِ مِنْ أكْمَامِهِ) فهذا مما يستدعي أن يعنى بتجريد الفرس المُهدَى من كل عيب.

---

(١) ديوان البحتري – تحقيق : حسن كامل الصيرفي– دار المعارف مصر سلسلة ذخائر العرب [٣٤] الطبعة الثالثة–١٩١٣/٤.

ومن ذلك في مأخذ الآمدي على قوله يصف الشيب الذي أصابه:

زارَني شَخصُهُ بِطَلعَةِ ضَيمٍ عَمَّرَت مَجلِسي مِنَ العُوّاد

فقد حمل الآمدي قوله:(عمرت مجلسي..) على عيادة المرضى، ولذا أخذ في نقد أبي تمام، يقول: "وقوله: «عمرت مجلسي من العواد» معنى لا حقيقة له؛ لأنا ما رأينا ولا سمعنا أحداً جاءه عواد يعودونه من الشيب، ولا أن أحداً أمرضه الشيب، ولا عزاه المعزون عن الشباب.... فأحب أبو تمام أن يخرج عن عادات بني آدم، ويكون أمة وحده"(١).

ونرى ابن المستوفي ينقل ما ذكره الشريف المرتضى في رد ما ذهب إليه الآمدي، حيث يقول:" وهذا من الآمدي قلة نقد للشعر، ولم يرد أبو تمام بقوله:(عمرت مجلسي من العواد) العيادة الحقيقية التي تغشى العواد فيها مجلس المرضى وذوى الأوجاع، وإنما هي استعارة وتشبيه، وإشارة إلى الغرض خفية، فكأنه أراد إن شخص الشيب لما زارني كثر المتوجعون لي والمتأسفون على شبابي، المتوجعون من مفارقته، فكأنهم في مجلسي عواد لي؛ لأن من شأن العائد للمريض أن يتوجع ويتفجع"(٢).

وهذا مؤداه أنه قد استعار لهيئة المتوجعين والذين يملأهم الأسى على فقده الشباب صورة الجالسين في مجلس لعيادة مريض، وقد امتلأ المجلس بالمتفجعين.

وقد أضاف ابن المستوفي على ما ذكره الآمدي، فقال: " فإن تمحلنا له- أي لما يصحح ما ذكره أبو تمام- قلنا: إن الشيب جاءه قبل وقته لكثرة همومه، فلما طلع عليه ازداد همًا، فمرض فجاءه العواد لمرضه لا الشيب، وهذا تمحل ضعيف بعيد؛ لأن الشيب لا يأتي دفعة، فيوجب ذلك الهم ما يقع معه عيادة، وقد يمرض

---

(١) الموازنة ٢١٣ /٢.

(٢) أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) الشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)- الطبعة: الأولى، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م- صـ٦١٣.

حتى يؤثر في وجوده تأثيرًا لا يبلغه الهم بالشيب ولا يفارقه، فلا يوجب ذلك عيادة"[١].

وهذا النص السابق يدل على أن ابن المستوفي مؤيد للآمدي مناقض لما أتي به أبو تمام، وأنه ليس على وفاق مع ما ذكره المرتضى، والذي نقله عنه.

وفي تقديري أن ما ذهب إليه المرتضى هو الأولى؛ لما في الاستعارة من دلالة على عظم الخطب وشدة الأسى والحرقة على مفارقة الممدوح لزمن الشباب، والكثرة الكاثرة لمن يأسي على فقده، وأن مظاهر الأسى والحزن بادية عليهم .

كما أن الاستعارة ليست بعيدة في إدراكها، فهي ليست كما ذكر الآمدي، والذي نقله أيضًا ابن المستوفي" أحب أبو تمام أن يخرج على عادة بني آدم، ويكون أمة وحده"[٢]، بل هي قريبة على هذا التأويل الذي ذكره المرتضى، والذي نقله ابن المستوفي.

ومن الحمل على الاستعارة التصريحية في مأخذ يتعلق باعتبار الاستعارة تمثيلية في قوله:

فَشارِكِ المَقمورَ فيهِ وَلا تَكُن شَريكَ الرَجُلِ القامِرِ

فَرِفدُكَ الزائِرَ مَجدٌ وَلا كَرِفدِكَ الزائِرَ لِلزائِرِ

فقد ذكر ابن المستوفي أن المرزوقي أورد مناسبة النص السابق، في كتابه الانتصار وهي أنه" كان ورد علي أبي تمام صديق احتاج من أجله إلى بر وعطية، فقال لهذا الممدوح : إن هذا الزائر جاء ليقمرني مالي، فأعني في الإفضال عليه، شاركني في الإحسان عليه، لتخف علي مؤونته، ولا تمنع جداك، فتكون شريكه، فيأخذ ما هو عندي، وتحرمني أنت ما عندك".

(١) النظام ٥/٢٧٦، وما بعدها.

(٢) الموازنة ٢/ ٢١٣.

ويذكر المرزوقي أن بعضهم قد " عابه بأن قال:(هو شريك القامر) مثل للعامة يستعملونه في الرجل إذا مال مع كل ريح، وهذا كقول العرب:(هو إمعة) يريدون أنه ولي الطالب، فلم يعرفه أبو تمام، ووصفه في غير موضعه" .

وهذا يؤدي إلى أنهم يذهبون إلى أن التعبير استعارة تمثيلية للرجل الذي لا رأي له، ويتابع كل أحد فيما يذهب إليه، ويظهر من كلامهم أن أبا تمام ما قصد هذا المعنى، بل أوقعه فيه جهله به.

أما موقف المرزوقي فهو رأى أن" أبا تمام لم يجعل هذا الكلام مثلًا، ولا لعرض شيء تقوله العامة، وإنما أراد بـ(المقمور) نفسه لما استرفد، وبـ(القامر) مستميحه".

فيكون المعنى عنده " تحمل عني، وكن شريكي في بره، ولا تكن شريكه بمنعك ما طلبته له، فأحتاج أن أنفرد بالإفضال عليه، فتثقل وطأته على" .

ويترتب على ما ذكره المرزوقي أن التعبير ليس استعارة تمثيلية، وأنه عبر بالمقمور عن نفسه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وكذلك عبر بالقامر عن مستميحه الطالب لجداه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

أما موقف ابن المستوفي فهو مؤيد لما ذكره المرزوقي، وهو يبرهن على ذلك بالنظر إلى سياق القصيدة، ويستدل على ذلك بأنه قد قصر قصيدته على هذه القصة السابقة، وساق بعضًا من القصيدة يكشف عن مناسبتها، وهو قوله:

لي صاحِبٌ قَد كانَ لي مُؤنِساً ... وَمَألَفاً في الزَمَنِ الغابِرِ
تَحمِلُ مِنهُ العيسُ أُعجوبَةً ... تُجَدِّدُ السُخرِيَّ لِلساخِرِ
ذا ثَروَةٍ يَطلُبُ مِن سائِلٍ ... وَمُفحَماً يَأخُذُ مِن شاعِرِ

ويوضح الصورتين اللتين استخدمهما أبو تمام، بأنه يقول لممدوحه:" شاركني فأنا المقمور؛ لأنه جاء يطلب مالي، وأعطه من مالك عني، ولا تكن شريكه في منعي ما طلبته منك له؛ لأن من طلب مالي لأعطيه إياه، ومن منعني أن أدفع عن مالي بماله مشتركان في سلبي وقمري"(١).

(١) النظام ٨/٢٣-٢٤.

واستعارة المقمور لنفسه ليس فقط دالة على أنه لا يستطيع تقديم شيء للمستميح، بل تشعر أنه مهزوم منكسر يشعر بالخذلان ويتجرع الأسى ويضيق صدره بالمرارة على فقد ما يستطع أن يقدمه له، وكذلك فيها دلالة على حب أبي تمام للجود والإكرام، وشعوره بأنهما يحققان سعادة له.

وكذلك استعارة القامر للمستميح الذي يطلب منه المال أكثر مناسبة لتسببه في خسارة أبي تمام للمال، والقدرة في التأثير عليه والمهارة في ذلك أيما مهارة!

وصورة المطابقة بين المقمور والقامر تجعل الممدوح أكثر تعاطفاً مع أبي تمام عندما يرى أبا تمام ومستميحه على النحو الذي تبرزه الصورتين السابقتين المتقابلتين.

-ومن الألوان البلاغية التي حملت عليها مآخذ أبي تمام المجاز المرسل، ومن ذلك في قوله:

دَعا شَوقُهُ يا ناصِرَ الشَوقِ دَعوَةً فَلَبّاهُ طَلُّ الدَمعِ يَجري وَوابِلُه

فقد خطأ الآمدي أبا تمام في نصرة الدمع للمشتاق في هذا البيت، يقول: " أراد أن الشوق دعا ناصراً ينصره فلباه الدمع، بمعنى أنه يخفف لاعج الشوق، ويطفئ حرارته، وهذا إنما هو نصرة للمشتاق على الشوق، والدمع إنما هو حربٌ للشوق؛ لأنه يثلمه ويتخونه ويكسر منه حده، كما قال البحتري:

وَبُكَاءُ الدّيَارِ مِمّا يَرُدُّ الـ شّوْقَ ذِكرْاً وَالحبَّ نِضوْاً ضَئِيلا"

ويضيف: " فلو كان الدمع ناصراً للشوق لكان يقويه ويزيد فيه، ألا ترى أنك تقول: قد ذبحني الشوق إليك، فالشوق عدو المشتاق وحربه، والدمع سلمٌ لتخفيفه عنه وهو حرب للشوق، وليس بهذا الخطأ خفاء".

وقد ذكر أن البحتري تبعه في هذا الخطأ، فقال بنعى الديار التي وقف عليها :

نَصَرْتُ لهَا الشّوْقَ اللّجوجَ بأدْمُعٍ تَلاَحَقْنَ في أعقابِ وَصْلٍ تَصَرّما[1].

(١) الموازنة ١/٥١-٥٢.

أما ابن المستوفي فيورد ما ذكره المرزوقي، فقد ذكر احتمالين يصح من خلالهما ما استخدمه أبو تمام، فالاحتمال الأول مؤداه: أن الشوق مجاز مرسل عن الحزن، والعلاقة هي السببية، وذلك من جهة أن الشوق يستلزم الحزن على الفرقة يقول : "يجوز أن يكون أراد بـ(ناصر الشوق) دعوة الحزن؛ لأنه يضرم ناره، ويثير ما كمن منه، ويهيج ساكنه، فيكون المعنى هو: أن الشوق دعا حاله واستغاث به، وهو الحزن، فلباه ما عليه، وكان خاذله، وهو البكاء".

وقد ذكر المرزوقي تجانس هذا التأويل مع السياق السابق، يقول:"وقد صرح أبو تمام بهذا المعنى فيما قبله، فإنه قال:

لَقَد أحسَنَ الدَّمْعُ المُحَامَاةَ ، بَعْدَما　　　أَسَاءَ الأسَى إِذْ جَاوَرَ القَلْبَ دَاخِلُهْ

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا آثر هذا التجوز؟.

والجواب أنه يريد أن يبرز قوة الشوق، وألا يجعله متواريًا غير متواجد، فهو يريده متقدًا سعيره مشتعلًا جذوته، يصنع صنيعه ويزكي غرامه، فلم ينطفئ بالدمع، ولم يؤثر فيه العويل، ولعله هو ما دعا البحتري أن يقتدي بأبي تمام في هذا الصنيع كذلك.

وذكر المرزوقي احتمالًا آخر مبنيًا على أن في التركيب حذفًا لحرف جر، يقول:" ويحتمل أن يكون أراد بـ (ناصر الشوق) يا ناصرًا علي الشوق، وجاز إضافته على طريقتهم في إضافة الشيء إلى الشيء كان له أو عليه أو منه أو معه، وهذا مشهور عند أهل العربية" .

ويذكر ما يترتب على هذا الحذف فيقول:" ويكون على هذا الدعاء والتلبية مثلين، يكون الشوق باعثًا على البكاء وداعيًا إليه، ويكون البكاء من توابعه ومسبباته، ومثل هذا قوله في أخرى:

فاسألنها، واجعلْ بُكاكَ جواباً　　　تجد الشَّوقَ سائلاً ومُجيبا[(١)]

(١) النظام ١٣/١٥٩-١٦٠، وشرح مشكلات ديوان أبي تمام للمرزوقي- تحقيق: د. عبد الله سليمان الجربوع- الناشر: مكتبة التراث بمكة المكرمة- الطبعة الأولى١٤٠٧هـ ١٩٨٦م- صد: ٢٤-٢٥.

ويدل على موافقة ابن المستوفي لما رآه المرزوقي أنه يضعف رواية أخرى، يمكن أن يتحاشى بها أبو تمام ما أخذه عليه الآمدي، وينتصر للرواية الأولى وتفسيرها.

يقول:" وفي نسخة (دعا شوقَه) بالنصب، وفيها استغاث بالدمع فأجابه آخره، ويجوز أن يكون في(دعا) ضمير العاشق، أي دعا العاشق شوقه فأجابه طل الدمع ووابله، وفي غير هذه النسخة (دعا شوقُه) بالرفع، وقد تقدم تفسيره وهو الصحيح"(١).

-كذلك من الألوان البلاغية التي حملت عليها مآخذ أبي تمام المجاز العقلي، ومن ذلك ما ساقه المرزوقي في قول أبي تمام:

لَهُ خُلُقٌ نَهى القُرآنُ عَنهُ وَذاكَ عَطاؤُهُ السَرَفُ البِدارُ

فقد أورد تخطئة البعض وتغليطه لأبي تمام في قوله (السرف البدار) وادعي عليه أنه توهم فيه قول الله عز اسمه (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا)(٢) أن البدار من صفة السرف.

ويورد المرزوقي تعليقًا على ذلك بأنه " يبعد في وهم كل عاقل منصف عارف مقادير أهل الفضل وتصريفهم متدبر أن يكون مثل أبي تمام يذهب عليه من الآية التي تلقاها، وادعي أنه أشار إليها في البيت ما ذكر، حتى أخذ منها بزعمه ما أخذ، لا سيما وهي مقصورة على ذكر أوصياء الأيتام، وقد نهى الله عز وجل عن السرف في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: (وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)(٣) وقال عز اسمه في غير هذا:(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)(٤) فمن أين لك أنه يشير إلى هذه الآية دون غيرها؟".

---

(١) النظام ١٣/١٦٤.

(٢) النساء: ٦.

(٣) الأنعام :١٤١، والأعراف:٣١.

(٤) الفرقان: ٦٧.

ويمكن أن يرد على ذلك بأنه أراد من الشاهد ما أراده من الآية، بدليل قوله في صدر الشاهد : له خلق نهى القرآن عنه.

ويضيف المرزوقي مفسرًا التركيب على أساس المجاز العقلي، فيقول:" فأما قوله (عطاؤه السرف البدار) فمعناه: عطاؤه السرف فيه، المبادر إليه، فجعل المصدر قائمًا مقام الصفة على أحد الوجهين المشهورين على النحويين فيه من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أو جعل الفاعل هو الفعل على التوسع والمجاز، وهذا على قولهم: زيد أكل وشرب"

ويورد ما يترتب على ذلك في نظره" فإن كان كذلك سلم قول أبي تمام من الطعن، ويسقط ما رامه العائب من العيب" .

أما ابن المستوفي فذكر أن الذي أنكره المرزوقي على من ادعي أن البدار من صفة السرف هو الذي ذكره وقدره المرزوقي، فجعله صفة للسرف.

ويذكر كذلك أن المرزوقي رجع عما أنكره على خصم أبي تمام، وقال بقوله في السرف البدار(١).

وهكذا يصح ما ذهب إليه كل من المرزوقي وابن المستوفي في أن البدار صفة للسرف عند أبي تمام، والقياس على الآية لا يترتب عليه خلل في المعنى الذي يرومه أبو تمام؛ ولذلك قال به ابن المستوفي، ولم يستمر المرزوقي في رفضه.

والذي يؤديه هذا التقييد هو المحبة البالغة للعطاء، حتى إنه على الرغم من الكثرة والإسراف في ميادين الخير، والتي يمكن أن ترهقه تجده على هذا النحو من المبادرة العاجلة فيها.

ومن الحمل على المجاز العقلي في قوله :

شَابَ رَأْسِي ومَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الرَّأْ سِ إلاَّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفُؤَادِ

(١) النظام ٨/١٢-١٣.

فإنه يروى ابن المستوفي أن ابن المعتز أنكر على أبي تمام هذا البيت، وقال: فيا سبحان الله ما أقبح شيب الفؤاد، وما كان أجراه على الأسماع في هذا وأمثاله، وأنكره القاضي الجرجاني، وعده مما استقبح من استعاراته، وكذلك عابه المرزباني(١).

أما الآمدي فقد رأى في الموازنة أن هذا التركيب ليس عنده بعيب(٢)، وقد أوضح ابن المستوفي موقف الآمدي بصورة أوضح مما في الموازنة، فبين الاحتمالات التي يمكن أن يتأول بها ما أنشده أبو تمام، ويبدو أنه كان ينقل من كتاب الآمدي المفقود في تفسير أبيات أبي تمام، يقول: " وقال الحسن بن بشر الآمدي: وليس هذا عندي بمعيب؛ لأنه أراد أن الشيب عاجله لكثرة هموم فؤاده، فلما جعل منشأ الشيب إنما هو من قبل فؤاده نسب الشيب إلى الفؤاد، وهذه فلسفة حسنة".

وهذا الاحتمال الأول الذي ذهب إليه الآمدي يجعل قوله: (شيب الفؤاد) مجازًا عقليًا، من الإضافة إلى السبب، فما يمور في الفؤاد من هموم هو سبب الشيب، وهذا المجاز يقوي سببية الهموم وأمراض الشعور في الهرم والشيب.

وأما الاحتمال الآخر الذي يذهب إليه الآمدي فيقول عنه " وإن شئت أن تقول: إنه إنما قابل لفظًا بلفظ، كما قال الله عز وجل: ((وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا))(٣)، فالسيئة لا تكون من الله عز وجل، فسمى جزاء السيئة سيئة، وقال عز وجل: ((وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّه))(٤)، والمكر لا يكون من الله، فسمى جزاء المكر مكرًا، والمعنى الأول أصح وأثبت وأوضح ".

---

(١) النظام ٢٧٢/٥، وينظر الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني – تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي– الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.– ص: ٢٥٤، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني – تحقيق: على محمد البجاوي– الطبعة الثانية– المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٥هـ– صـ: ٢٢٦.

(٢) الموازنة ٢١٢/٢.

(٣) الشورى:٤٠.

(٤) آل عمران:٥٤.

وهذا الاحتمال يجعل التركيب من قبيل المشاكلة، وقد استضعفه الآمدي، ولعل داعي ذلك عنده؛ لأنه لا يظهر قوة هموم الفؤاد، ويجعلها فقط مشابهة لأمراض الجسد مع أنها أقوى منها في التأثير؛ وذلك لأنها في كثير من الأحيان الجالبة لها المسببة لأوجاعها، بل وتضاعف الإحساس والشعور بأي داء جسدي مهما كان هينًا، وهي عند أبي تمام زادت حتى فاضت، أو على حد قول أبي تمام: (من فضل شيب الفؤاد).

وكذلك ليس شيب الفؤاد جزاء أو مسببًا عن شيب الجسد كما هو مقتضى ما يذكره في هذا الاحتمال، وكما هو مفهوم من شواهده؛ ولذلك اعتبر الآمدي الاحتمال الأول هو أصح وأثبت وأوضح.

والآمدي يعجب غاية العجب بقول أبي تمام، ولذا اعتبره على الرغم من تخطئة ابن المعتز:"من فلسفته الحسنة الصحيحة المستقيمة، ومن مشهور إحسانه".

أما ابن المستوفي فهو يقر بحسن التركيب، ولكنه لم يحاول أن يورد ردًا على ما ذكره ابن المعتز مكتفيًا بما نقله عن الآمدي، وهذا يدل على موافقته لما ذهب إليه الآمدي.

وفي تقديري أن التركيب من قبيل الاستعارة، فهو يستعير الشيب الذي يصيب الشعر لتغير حال الفؤاد وضعفه مما يحدث مع مرور الأزمان.

وعند المقارنة بين القول بالمجاز العقلي، الذي علاقته السببية وبين القول بالاستعارة يلاحظ أن القول بالمجاز العقلي لا يصل إلى درجة القول بالاستعارة في إبراز ما أصاب القلب من وهن وضعف وخور، فإنه فقط يؤكد سببية ما يعتلج في الفؤاد من هموم وأسقام في ظهور الشيب والإصابة بأعراض الهرم.

أما القول بالاستعارة فإنه يفيد أن الفؤاد نفسه قد أصابه الوهن والشيخوخة، وحتمًا أن ينعكس ذلك على كافة مكونات البدن مادام أعظم عنصر في الإنسان والمتحكم في كافة قدراته على هذا النحو من الخور والشيخوخة؛ ولذا كان في تقديري أن القول بالاستعارة أبلغ في الدلالة وأهم في إبراز البلوى.

ويمكن الاستدلال على أن وصف الفؤاد بالشيب مناسب، من جهة أن ما أصاب الشعر من شيب هو ناتج مما أصاب الفؤاد من هموم وأسقام نفسية، ويشهد لهذا الوجه من التناسب وقصد أبي تمام له ما جاء في البيت التالي لمحل الشاهد؛ فقد جعل فيه القلوب طلائع الأجساد في كل بؤس ونعيم، يقول:

وكَذاكَ القُلُوبُ في كُل بُؤْسٍ ونَعِيمٍ طَلائعُ الأجْسَادِ

وبعد ذلك يمكن القول أنه إذا لم يسمع عن العرب شيب الفؤاد كما رأي ابن المعتز ومن تابعه، فإن كافة ما ذكر يجعل هذا التعبير تعبيرًا طيبًا لائقًا، ولا يفتقد الحسن والتأثير في النفس بناء على الاحتمالات المذكورة؛ إذ له ما يناسبه، ويبرهن له.

-وكذلك من الألوان البلاغية التي اعتمد عليها في الدفاع عن أبي تمام الحمل على الحقيقة دون المجاز، وذلك أن الحقيقة يمكن أن تكون ثرية بالدلالات، وتضفي على النظم قوة، وتتناغم مع مبتغاه دون الحاجة إلى المجاز، ومن ذلك في قوله:

يا أيُّها الملِكُ النّائِي بِرُؤْيَتِهِ وجودُه لمرجي جودهِ كثبُ

ليسَ الحِجابُ بِمُقْضٍ عنكَ لي أملاً إن السماءَ تُرَجَّى حينَ تحتَجبُ

فقد أوضح ابن المستوفي ما ذكر من عيب للبيت الأخير فقال: " ذكر الآمدي القول في البيت الأخير في غير موضع في كتابه مشيرًا إليه، واستوفى القول عليه في [شرح الأبيات]، فقال وأنشده:" قد عابه قوم بهذا المعنى، وقالوا: إن السماء إذا احتجبت بالسحاب فحجابها هو المرجو دونها".

ويوضح الاحتمالات التي يمكن أن يدعى أنها ترفع الخلل، وما فيها من ضعف، فيقول: " وإن كان أراد بالسماء السحاب فقد أخطأ؛ لأن السحاب يحتجب بماذا؟ فإن أراد أن بعضه يحجب بعضًا فذلك خطأ في العبارة وتأول بعيد أن يكون سحاب محجوب في السماء، ويكون الماطر هو المحجوب دون حجابه، وهذا ما لا يعقل"(١).

(١) النظام ٣/ ٢٢١، وينظر الموازنة ٧١/١، ٥٣٧/٣.

أما ابن المستوفي فلم يجاري ما ذكر من عيب لقول أبي تمام، فلم يتأول (السماء) بمثل ما ذهب إليه من عابه، يقول:" والبيت عندي صحيح، ولم يذهب أبو تمام إلى شيء مما ذهبوا إليه، وإنما أراد السماء نفسها؛ لأن الرزق من السماء ينزل على ما جرى به العرف، ونطق به القرآن في قوله تبارك اسمه: [وفي السماء رزقكم وما توعدون][١]؛ لأن الإنسان إنما يرفع يده في مسألة ربه والتماس الفضل من عنده إلى السماء، فإذا أجابه وأعطاه فكأن رزق الله من السماء نزل عليه، وكذلك إذا افتقر وانسدت عليه الأبواب، قال: كأن رزقي انقطع من السماء، وكأن أبواب السماء أغلقت دوني".

وفي تقديري أن أبا تمام لم يقصد الحديث عن السحاب كما ذهب من تأول ذلك، بل هو مضعف لمراده وبغيته؛ ذلك أن بقاء دلالة السماء دون تأولها بالسحاب دال على امتداد ملك الممدوح واتساعه، وأن الشاعر لا يستطيع الفكاك من الرغبة في إغداق الممدوح الخير ما دام على هذا النحو من الاتساع والفضل، وهذا أدعى لقوة تشبثه بالممدوح، الذي هو المعنى المسيطر على السياق.

ويقارن ابن المستوفي بين صنيع أبي تمام وصنيع مسلم بن الوليد، الذي استخدم لفظ (الغيث) في ذات المعنى في قوله :

كَذَلِكَ الغَيثُ يُرجى في تَحَجُّبِهِ حَتّى يُرى مُسفِراً عَن وابِلِ المَطَرِ

فيقول:" ما أرى الغيث في هذا لاحقًا غير مسلم؛ لأن العذر له يضيق، لأنا إن تأولنا له: إن احتجاب الغيث هو بالغمام، وإن كان الغيث هو الغمام نفسه إذا ذاب وانحل، وجعلنا ما انحدر منه كأنه كان محتجبًا فيما بقى من السحاب فلا عذر له في قوله:(حتى يرى مسفرًا عن وابل المطر)؛ لأن الغيث كيف يكون مسفرًا عن وابل المطر، وهو المطر نفسه، وإن أراد بقوله: (حتى يرى مسفرًا) السحاب فذلك خطأ؛ لأن السحاب كان محتجبًا بماذا؟!. "[٢].

---

(١) الذاريات: ٢٢.

(٢) النظام ٣/٢٢٢.

وعندئذ يكون مسلم بن الوليد لا عذر له كما ذهب ابن المستوفي في استخدام لفظ الغيث، ولا يسلم له، بخلاف أبي تمام في استخدامه لفظ السماء.

-ومن الألوان البلاغية التي اعتمد عليها في الدفاع الحمل على المبالغة، وهي تلفت الانتباه للأهمية العاطفية والفنية للفكرة، وتوجد تأثيرًا أقوى في نفس السامع.

ومن ذلك في المآخذ المتعلقة بما ادعي عليه من استحالة المعنى في قوله يخاطب ممدوحه:

فَلَبِّ الحَزمَ إِن حاوَلتَ يَوماً بِأَن تَستطيعَ غَيرَ المُستَطاعِ

فيذكر ابن المستوفي أن المرزوقي في كتابه "الانتصار" ذكر أن قومًا وصفوا المعنى السابق بالاستحالة، وبين وجه الاستحالة عندهم بأن: " الحزم في ترك طلاب ما لا يطاق، فكيف يعين على إدراكه واستطاعته، حتى قال: أجبه بالتلبية على طلبه إذا حاولته".

ورأي المرزوقي أن الأمر قائم على المبالغة في شأن الحزم والحث عليه، يقول تعليقًا على ما سبق:" إن هذا من قائله تعد، وذلك أن معنى البيت: أجب الحزم وعليك به فيما تطلبه من المهمات، وتسعى فيه من الحاجات، فإن الحزم يعين على كل شيء حتى على ما لا يتأتى ولا يتسهل، وهذا كما يقال: كل ما لا يقدر عليه خلق فاستعن فيه بزيد، فإنه مبارك السعي، يراد بذلك المبالغة من شأنه والبعث على الأخذ به، ومثل هذا في الكلام كثير لا يدفعه ذو خبرة".

ويدلل على مراده بما جاء بعد الشاهد ومرتبًا عليه، وهو قوله:

فَلَم تَركب كَناجِيَةِ المَهاري وَلَم تُركَب هُمومَكَ كَالزَماعِ

وكأن أبا تمام يريد في نظر المرزوقي الدلالة على قيام الممدوح بكل ما يمكن أن يقتدر عليه، وأنه يبذل بالغ الطاقة وموفور الجهد في ذلك، لا أنه يحقق المحال، وراجع في ذلك أنه قال في هذا المعنى : (إن حاولت)، فهو لم يذكر أن الحزم يحقق المحال.

فاختيار المبالغة دال على أن من شأن الممدوح ألا يقف على الأمور القريبة، بل من شأنه أن يتجاوز ذلك، وأن له قدرات تسمو فوق قدرات الآخرين، وله نفس سامية تواقة للمعالي مهما كانت.

ويذكر المرزوقي تأويلًا آخر يدفع به الاستحالة، ولكنه دون التأويل الأول، فقال: " وقيل فيه أيضًا : أراد: إن حاولت يومًا ما لا يدخل تحت قدرتك ولا تتحمله طاقتك، فأجب الحزم فإنه يدعوك إلى ترك طلبه والاشتغال به، والأول أحسن"(١) ، ولم يستحسنه المرزوقي؛ لأنه ليس فيه ما في الأول من دلالة على تشجيع الممدوح على المعالي والمكارم.

ومما يدفع أيضا هذا التأويل الأخير، ويتوافق مع التأويل الأول ما سبق محل الشاهد، والذي يشير إلى التميز والقدرات الفائقة العجيبة للممدوح، وهو قوله:

يُثيرُ عَجاجَةً في كُلِّ ثَغرٍ يَهيمُ بِهِ عَدِيُّ بنُ الرِقاعِ

أَبَنَّ مَعَ السِباعِ القَفرَ حَتّى لَخالَتهُ السِباعُ مِنَ السِباعِ

هذا إلى جانب ما ذكره المرزوقي من البيت اللاحق للشاهد.

ومن الحمل على المبالغة، وذلك في تعليق ابن المستوفي على ما ذهب إليه القاضي الجرجاني في أن أبا تمام قد أحال في قوله :

سبعون شهرًا كلها في كلِهِ لي عائقٌ عن منزلِي وبلادِي

وذلك لأنه جعل للكل كلًا كما جعل للدهر دهرًا في قوله:

تحمَّلْتَ ما لوْ حمِّلَ الدهرُ شطرهُ لفكَّرَ دهراً أيُّ عبأيهِ أثقلُ (٢)

وقد نقل ابن المستوفي رأي المرزوقي ورده على القاضي الجرجاني، فقال: " إن هذا المنكر لم يفهم عنه ما أراد، وإنما مراده: سبعون شهرًا جميعها يتساوى في كل واحد منها مانعًا عن مقري وداري، فالضمير في (كلها) يعود إلى) سبعون (وفائدتها العموم) و كله (فائدتها الإيحاد، وقد فسر قوله عز وجل:)) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ((٣)على أن معناه كل واحد منهم ".

---

(١) النظام١٠/ ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) الوساطة صـ : ٧٧-٧٨.

(٣) مريم :٩٥.

ويسوق نموذجًا آخر يماثل لفظ (كل) في الدلالة على العموم والوحدة، فيقول: " ومثل (كل) في أنه يفيد العموم مرة والإيحاد مرة (كلا)، وذاك أنهما لما تشابها في أن لفظ كل واحد منهما موحد، ثم كان (كل) لشمول الجمع و(كلا) لشمول المثنى تشابها أيضًا فيما ذكرت من الإيحاد، وفي أن الضمير يرد كل واحد منهما مرة على لفظه ومرة على معناه، على ذلك قوله:

إن المنية والحتوف كلاهما يوفي المحارم يرقبان سوادي

فمرة قال :(يوفي) ومرة قال: يرقبان".

ويضيف وجهًا آخر يخرج به ما ادعاه القاضي الجرجاني، فيقول : "ويجوز أن يكون المراد وهو أقرب سبعون شهرًا كل واحد منها في جميعه، أي في جميع أيامه لي عائق فيكون (كلها)للإيحاد، و(كله) للعموم".

وهذا الوجه الذي اعتبره المرزوقي أقرب تأويلًا فيه تصريح بشمول الشهور للأيام، وليس الاقتصار فقط على التصريح بالأشهر كما في التأويل الأول، وكأنه بعد ذكر العام الشامل وهو (السبعون شهرًا) يشير إلى ما يشتمل عليه من أجزاء وهي الأيام؛ زيادة في التأكيد.

وهذا التأويل أنسب بالإشعار بطول الأوقات وامتداد زمانها من خلال التصريح بالأجزاء والأبعاض.

وأما تخطئة القاضي لأبي تمام في قوله:(تحملت ما لو حمل الدهر.....) واعتباره أنه يماثل الشاهد المذكور، فقد رده ابن المستوفي بأن التركيب ليس من قبيل أن يجعل للدهر دهرًا، بل قائم على تصوير الدهر بإنسان على سبيل الاستعارة، يقول: " نهضت من الأعباء بما لو صور الدهر بصورة المتحمل للأثقال، ثم ألزم النهوض بنصف ما نهضت به لفكر دهرًا أي نصفيه أثقل، فيعدل عنه إلى الأخف، والدهر إذا صور بتلك الصورة ينتقل عن أن يكون دهرًا، وإذا انتقل عن حالته لا يكون أبو تمام قد جعل للدهر دهرًا"[١]، وما ذهب إليه ابن المستوفي صحيح، وهو ظاهر.

(١) النظام ٦/ ٢٧٠-٢٧١.

-ومن الألوان البلاغية التي اعتمد عليها في الدفاع عن أبي تمام الحمل على الإيجاز بالحذف، وهو يكثف المعاني، ولذا يتطلب من السامع قدرة على فهم ما وراء النص، مما يضفي على النظم قيمة بلاغية عالية.

ومن ذلك في تعليق المرزوقي على استطراف البعض لما أنشده ، وهو قوله:

وإنَّ صريحَ الرأي والحزم لامرئٍ إذا بَلَغَتْهُ الشَّمسُ أنْ يَتَحوَّلا

فقد ذكر المرزوقي علة استطراف القوم بقوله: " واستطرف بعضهم قوله: (فإن صريح الرأي) وأنشد وقال : الشمس عند البرد يحتاج إليها، فلا يتحول عنها".

وقد رد المرزوقي الاستطراف بوضوح المعنى، فلا يحتاج إلى النص عليه والتصريح به، يقول:" ولعمري إن عند البرد لا يكون التحول عن الشمس، ولكن الرامي بالكلام إذا حصل به الإفهام عد ما وراءه زيادة".

وجعل المرزوقي كلام العامة يتحرى البعد عن تلك الزيادة بلا فائدة في مثل هذا المعنى يقول: " فمن صبر منتظرًا لشيء ترقب حتى بلغته الشمس فهذا للمقرور، كما أن الذي ذكره أبو تمام للمجزوز، ولكل مسائل يفهم منه المعنى، وإذا كان كذلك فلا معنى لمضايقته".

وكذلك الشأن في النظم العالي، يقول: " ألا ترى أن قوله الله عز اسمه، وقد اجتمع الفصحاء على أنه النهاية في معناه ولفظه: ((وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ((١) ، وإن المراد لا يجلب ذلك عليهم، وإن استكثروا منها إذا كان القليل مما يكون في الدنيا لا يصدع ولا ينزف، فحذف شرط الاستكثار إذا كان المراد مفهومًا "(٢)، فلا وجه إطلاقًا لهذا الاستطراف، بل إن ما صنعه أبو تمام هو مسلك عام في النظم العالي، بل وفي كلام العوام من الناس، هذا ما أراده المرزوقي.

---

(١) الواقعة: ١٨- ١٩.

(٢) النظام ٣٢١/١٣-٣٢٢.

المبحث الثاني

تحقيق الغرض المقصود

ومن الأسس البلاغية التي اعتمد عليها في الدفاع عن أبي تمام تحقيق الغرض المقصود، وتحقيق الهدف الذي يسعى الشاعر إليه من خلال نصه يعتبر من دلائل قوة النص وفاعليته.

والاعتماد على تحقيق الغرض المقصود شمل عنده الغرض من استخدام اللفظ ومن المشبه ومن المشبه به ووجه الشبه ومن الاستعارة ومن إيراد المعنى.

-تحقيق الغرض المقصود من استخدام لفظ.

ومن ذلك في قوله:

بَلْ قابِضٌ بنواصِي الأمرِ مُشتَمِلٌ على قَوَاصِيهِ في بَدْءٍ وفي عَقِبِ

فقد رأى الآمدي أن أبا تمام كان ينبغي أن يستخدم لفظ الحزم أو العزم بدلًا من لفظ الأمر الذي استخدمه في قوله:(قابض بنواصي الأمر)[١].

ويبدو أن السبب الذي دعا الآمدي إلى تخطئة أبا تمام أنه لا يجد فيما استخدمه أبو تمام من الدلالة على فرط التمكن والقدرة والثقة والرغبة في تحقق المطلوب مثلما تؤديه كلمة الحزم، أو الإصرار كما في كلمة العزم.

أما ابن المستوفي فرأى أنه لا حاجة إلى استخدام كلمة الحزم، فكلمة الأمر هي المؤدية للغرض المقصود يقول معلقًا على ما ذهب إليه الآمدي: " هذا تعصّب من الآمدي، وقول أبي تمام (بنواصي الأمر)، يريد: نواصي الأمر الذي أطلبه من مظانه ومن وجهه، ولكني لا أظفر، وهو أولى من الحزم؛ لأن الحزم: الأخذ بالثقة، وأبو تمام وإن كان قد طلب ما طلبه من جهاته فليس على ثقة، وعلى أن الحزم هو نفس الأمر الذي ذكره أبو تمام".

---

(١) الموازنة ٢/٢٥٦.

فهو يرى أن لفظ (الأمر) هو الأنسب بالمقصود، فإن أخذ الأمر بالثقة التي يدل عليها الحزم لا حاجة لها في تحقيق الغرض المقصود، فيكفي مجرد طلب الأمر كما فعل أبو تمام.

كما يرى ابن المستوفي أن التركيب الذي جاءت فيه الكلمة يؤدي نفس المعنى للحزم الذي اقترحه الآمدي، ويستدل بما ذكره الجوهري في تفسير الحزم، يقول: " قال الجوهري: الحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة"(١).

ويعلق على قول الجوهري فيقول:" وإذا كان قد قبض نواصي الأمر فقد فعل الحزم"، وهذا تدليل منه على أن التركيب الذي استخدمه أبو تمام يؤدي ما أداه لفظ الحزم.

على أن أبا تمام لا يريد فقط مجرد طلب الأمر من مظانه بدون ثقة في تحققه كما ذهب إلى ذلك ابن المستوفي، ولكن يريد الطلب مع الثقة في التحقق، يدل على ذلك قوله في البيت السابق لمحل الشاهد، والذي يعبر به عن درايته بتجارب الحياة، وينفي فيه أن يكون جاهلًا عما يجري فيها :

ما كنتُ كالسَّائِلِ الأَيَّامِ مُخْتَبِطاً عَنْ لَيْلَةِ القَدْرِ في شَعْبَانَ أَوْ رَجَبِ

على أن ما ذكره ابن المستوفي من أن أبا تمام قد أفاد هذا المعنى من التركيب (بل قابض بنواصي الأمر) هو صحيح.

ويلحظ ابن المستوفي كذلك التناقض عند الآمدي فيما يتعلق بدلالة الحزم على الثقة في تحقق الوقوع، وذلك في عيبه على قول أبي تمام:

لمّا أطالَ ارتجالَ العذلِ قلتُ لهُ : الحَزْمُ يُثْني خُطُوبَ الدَّهْرِ لا الخُطَبُ

إذ يقول " قوله:(الحزم يثني خطوب الدهر) ليس بواجب قاطع على كل حال، ولو كان ذلك كذلك لما رأيت حازمًا قط يصيبه من الدهر ما يكرهه، ولكن لما كان

(١)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار– الناشر: دار العلم للملايين – بيروت –الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م– مادة (حزم) ١٨٩٨/٥.

الحزم قد يفعل ذلك صلح ذكره، ففي هذا بعض المغايرة لكلامه الأول، وشاهد أن قوله:(بل قابض بنواصي الأمر) الأمر فيه أولى من الحزم".

أما لفظ (العزم) الذي اقترحه أيضا الآمدي فقد علق عليه ابن المستوفي بأنه (لا معنى له في هذا البيت)[١]؛ ولعل السبب فيما ذكره أن لفظ العزم يعبر عن الإصرار على العمل، يقول الجوهري: عَزَمْتُ على كذا عَزْماً وعُزْماً بالضم وعَزيمَةً وعَزيماً، إذا أردت فعله وقطعت عليه" [٢]، ولا حاجة لهذا المعنى، كما يدلل على ذلك البيت السابق على محل الشاهد، الذي يدور- كما سبق- حول التعبير عن سعة خبراته، ونفي الجهل عنه، فكأنه يقول في البيتين: إنه على خبرة وتجربة في الحياة، فليس شأنه كمن يجهل الشهر الذي تكون فيه ليلة القدر، بل هو على ثقة بما سيجري من أمور، فلا معنى لكي يأتي الإصرار على العمل، الذي هو معنى العزم في هذا السياق.

وكذلك منه تعليق ابن المستوفي على قوله:

تحمَّلَ عنه الصبرُ يومَ تحمَّلوا وعادَتْ صباهُ في الصبّا وهي شمألُ

فقد نقل عن الآمدي أن الذي دعا أبي تمام إلى استخدام(الصبا) في الشاهد السابق هو التجنيس، وإلا فإن الأولى هي الجنوب، ويبدو أنه كان ينقل عن كتاب الآمدي المفقود في تفسير أبيات أبي تمام، فإن ذلك غير موجود في الموازنة، يقول:" قال الآمدي: " جاء بـ(الشمأل) ها هنا؛ لأنها تفرق السحاب وتبدده، كما أن الجنوب تؤلفه وتجمعه، فقال: (وعادت صباه)، وكان الأجود لو قال: وعادت جنوبه، وإنما أراد التجنيس: بالصَّبا والصِّبا، إلا أن الصَّبا أيضا ريح تحمد في هذه الحال، فأراد أنها عادت شمالًا، أي متفرقة".

---

(١) النظام ١٩٧/٣-١٩٨، وينظر الموازنة ٣٢٠/٢.

(٢) الصحاح مادة (عزم) ٥/ ١٩٨٥.

وقد رأى ابن المستوفي أن" قول الآمدي: " إلا أن الصَّبا أيضا ريح تحمد في هذه الحال" يعضد أبا تمام في استعمالها مقابلة للشمال، وهي تقوم مقام الجنوب، فلا وجه لقوله:" وكان الأجود لو قال: وعادت جنوبه".

ويؤيد ما يراه بما نقله عن الجوهري في الدلالة المعجمية للصبا وللجنوب، فيقول: " وتزعم العرب أن الدبور تزعج السحاب وتشخصه في الهواء ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه واستقبلته الصبا فردت بعضه على بعض حتى يصير كسفًا واحدًا، والجنوب تلحق روادفه به وتمده من المدد، والشمال تمزق السحاب"(١).

ويلاحظ من خلال النص الذي نقله ابن المستوفي عن الجوهري أن الصبا تؤدي ما تؤديه الجنوب وزيادة، فهي تجعل السحاب كسفًا واحدًا، فضلًا عما تحدثه من التآلف بين السحاب كما هو الشأن في الجنوب، وهذا يجعلها في التقابل مع الشمأل أقوى، فضلًا عما تحدثه من التجنيس.

وعندئذ يكون اختياره لها أدل على المعنى الذي يريده، وهو ما كان يوافقني من اللهو والصبا صار مخالفًا مفرقًا لملاذي.

ومنه أنه قد نقل ابن المستوفي عن المرزوقي إنكار البعض لاستخدام لفظ (العزاء) في قول أبي تمام:

إِنَّ العَزَاءَ وإِنْ فَتىً حُرِمَ الغِنَى رزقٌ جزيلٌ للذي لا يُرزق

ويبين المرزوقي داعي الإنكار عندهم بأنه" ليس موضع عزاء، إن ذا موضع قناعة؛ لأنه يريد إن كل من حرم الغنى فله في القناعة رزق جميل، وإنما يكون العزاء في المصيبة يصاب بها الإنسان".

ويوضح المرزوقي تقارب الدلالة وتداخلها بين الصبر والعزاء والقناعة في هذا الموضع عند أبي تمام بقوله : " إن الصبر على الحرمان والرضى بمحتوم القضاء نعمة من الله- عز جل- على من حرم الغنى، فإذا وفق له الإنسان الذي لم

(١) النظام ٢٦١/١٣-٢٦٢، وينظر الصحاح ٢٣٩٨/٦.

يرزق أعراض الدنيا ولم يحل منها بطائل فقد رزق رزقًا جميلًا، فإذا كان الأمر على هذا فالعزاء والصبر والتسليم والقناعة كل يمت بماتة صاحبه في وقوعه هذا الموقع، ألا ترى أن من قنع بشيء فقد حسن عزاؤه فيه، وتسلي عن غيره، كما أن من سخط شيئًا فقد جزع له".

ويرتب على تقارب الدلالة السابق الإشارة إليه قوله:" وإذا كان الأمر على هذا صح فيها وفي أضدادها نيابة كل عن صاحبه".

ويدعم المرزوقي مناسبة التعبير بالعزاء عند أبي تمام من خلال قوله:"على أن الحرمان من أعظم المصائب، ولو كان العزاء لا يستعمل إلا فيها "[1] فهذا دال على أنه يمكن أن يستخدم العزاء للدلالة على عظم مصيبة الحرمان والافتقار، فكأن الحرمان مصيبة يستعاذ منه ، ويطلب عزاء للإصابة به، بل هو في تقديري أبلغ في هذا الموضع.

ومن ذلك في الرد على مأخذ في تأويل لفظ في قول أبي تمام:

شَهِدتُ لَقَد أَقوَت مَغانيكُمُ بَعدي وَمَحَّت كَما مَحَّت وَشائِعُ مِن بُردِ

فقد عد الآمدي استخدام أبي تمام لقوله: (الوشائع) غلط، ويعلل ذلك بأنه: " جعل الوشائع حواشي البرد أو شيئاً منها، وليس الأمر كذلك، إنما الوشائع غزلٌ من اللحمة ملفوفٌ يجره الناسج بين طاقات السدى عند النساجة."

ويستدل على ذلك بقول ذو الرمة:

بِهِ مَلعَبٌ مِن مُعصِفاتٍ نَسَجنَهُ كَنَسجِ اليَماني بُردَهُ بِالوَشائِعِ

وقول كثير:

دِيارٌ عَفَت مِن عَزَّةَ الصَيفَ بَعدَما تُجِدُّ عَلَيهِنَّ الوَشيعَ المُثَمَّما

ويعلق على ما أنشده كثير بقوله: " فإنما أراد بالوشيع هنا سد به الخصائص بين الشيئين، وهو من وشائع الغزل مأخوذ، والمنمنم: مأخوذ من النمام، أي بعد ما كانت هذه الديار تجد بالوشيع، أي: يخصص به خيامها".

---

(١) النظام ١١/٤١٠-٤١١.

ويضيف: " ومثل أبي تمام لا يسوغ له الغلط في مثل هذا؛ لأنه حضرى، إنما يسامح في ذلك البدوى الذي يريد الشيء ولم يعاينه فيذكر غيره؛ لقلة خبره بالأشياء التي تكون بالأمصار، وأما أبو تمام فليست هذه حاله، ما جهل هذا، ولكنه سامح نفسه فيه، ألا ترى إلى قوله في موضوع آخر يصف قصيدةً:

الجِدُّ وَالهَزلُ في تَوشيعِ لُحمَتِها وَالنُبلُ وَالسُخفُ وَالأَشجانُ وَالطَرَبُ

فقال ((في توشي لحمتها))"(١).

وقد لاحظ ابن المستوفي أن للوشيعة معان أخرى غير المعنى الذي نقده الآمدي، فيقول:" قد فسر أهل اللغة(الوشيعة) بمعان مختلفة، فقالوا: (الوشيعة): لفيفة من الغزل، وتسمى القصبة التي يجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج، قال الشاعر:

به ملعبٌ منْ معصفاتٍ نسجنهُ كَنَسْجِ الْيَمَانِي بُرْدَهُ بِالْوَشائِعِ

وقالوا:(الوشيعة): لفيفة القطن المندوف، و(الوشيعة) : الطريقة في البرد، قال ذلك الجوهري"(٢).

ويضيف: " فهلا حمل الآمدي (الوشائع) في قول أبي تمام على :(الطرائق في البرد) ولم يحملها على ما حملها عليه، وعابه به؟!".

وما اقترحه ابن المستوفي في تفسير الوشائع به هو الأنسب بالغرض المقصود؛ وذلك من جهة أن إبراز التحول والتغير الذي آلت إليه مغاني القوم بعد رحيل الشاعر عنهم، يناسبه أن يكون انتقال من المتعة والجمال والحسن البالغ إلى خفائها؛ ولذا الأوفق أن يكون المشبه به في الصورة التشبيهية التي يحويها الشاهد، هو خفاء النقوش والتطريز والطرق على البرد ، فهو انتقال من المتعة والجمال والحسن المشار إليه بالنقوش والتطريز على البرد إلى انعدام الجمال والحسن كما يحدث بعد زوال التطريز والنقوش على البرد.

---

(١) الموازنة ١/ ١٩٢- ١٩٣ .

(٢) النظام ٦/ ١١٨-١١٩ ، وينظر الصحاح مادة (وشع) ١٢٩٨/٣.

ويمكن أن يؤدي الانتقال والتحول ما حمل عليه الآمدي(الوشائع)، ولكن لا يظهر المتعة والحسن والجمال لمغاني القوم التي كانوا عليها إبان وجوده كمثل ما يبرزه تفسير ابن المستوفي لها.

وأما قول الآمدي: " إنما يساغ ذلك للبدوي..."، فقد علق عليه ابن المستوفي بقوله: " فالأولى : أن لا يسوغ البدوي ذلك؛ لأنه رب اللغة وصاحبها"(١)، وما ذكره ابن المستوفي هو صحيح؛ ولذا حق له التعجب مما يذهب إليه الآمدي.

ومن ذلك في قوله:

من الهِيفِ لو أنَّ الخلاخِلَ صُيِّرَتْ لهَا وُشُحاً جَالَتْ عليها الخلاخِلُ

فقد عد الآمدي جعل أبي تمام (الخلاخل) في موضع الوشاح غلط، ومن قبيح ما توصف به النساء؛ وذلك " لأن الوشاح هو ما تقلده المرأة متشحة به، فتطرحه على عاتقها، فيستبطن الصدر والبطن، وينصب جانبه الآخر على الظهر حتى ينتهي إلى العجز...، وإذا كان الخلخال – وهو الحلقة المستديرة المعروف قدرها – وشاحاً للمرأة فإنه يأخذ أعلى جسده كله، وإذا كانت كذلك فقد مسخت إلى غاية القماءة والصغر"، وهذا القول ذهب إليه كذلك أبو هلال العسكري والقاضي الجرجاني(٢).

وواضح أن مقياس عدم القبول هذه الكلمة هو ما يؤدي إليه استخدامها من صورة منفرة في غاية القبح والضآلة.

وكذلك يضيف الآمدي إلى استهجانه دافعًا آخر، وهو مخالفته لسنن العرب وطرائقهم في التعبير، يقول:" وقد تصف العرب الخصر بالدقة، ولكن تعطى كل جزء من الجسد قسطه من الوصف، كما قال امرؤ القيس:

طوال المتون والعرانين كالقنا لطاف الخصور في تمامٍ وإكمال

---

(١) النظام ١١٩/٦.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم– الناشر: المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م– صـ:١٢٠، والوساطة صـ:٨٧..

ألا تراه لما قال: لطاف الخصور قال: في تمام وإكمال".

ويقترح تعديلًا يتصوب به المراد في نظره، فيقول: "ولو قال هذا الشاعر: لو أن الخلاخل صيرت لها حقباً لصح له المعنى، كما قال منصور النمري:

ولَو قِستَ يَوماً حِجلَها بِحِقابِها لَكانَ سَواءً لا بَلِ الحِجلُ أَوسَعُ

جعل حجلها – وهو الخلخال – أوسع من حقابها، والحقاب: ما تديره المرأة على خصرها؛ فهو يختص بالخصر وكذلك النطاق، والوشاح لا يختص بالخصر، وإنما يعلق حتى ينتهي إليه إذا كان الخصر دقيقًا والبطن ضامراً ".

وكذلك يقول:" ومن عادة العرب أنها لا تكاد تذكر الهيف وطي الكشح ودقة الخصر إلا إذا ذكرت معه من الأعضاء ما يستحب فيه الامتلاء والري، كما قال ذو الرمة:

عَجزاءُ مَكورَةٌ خَمصانَةٌ قَلِقٌ عَنها الوِشاحُ وَتَمَّ الجِسمُ وَالقَصَبُ"[1]

أما ابن المستوفي فقد ساق ما ذكره الآمدي مجملًا نقلًا عن المرزوقي، وذلك فيما يبدو عن كتابه المفقود (الانتصار من ظلمة أبي تمام).

ويبدو احتفاء ابن المستوفي بما ذكره المرزوقي من تأييد لأبي تمام؛ ولذلك يثني عليه قبل أن يسوق تفسيره لتركيب أبي تمام فيقول :(قال الشيخ أبو علي أدام الله عزه).

ويأخذ في سوق تفسيره فيقول: "الذي قصده أبو تمام بكلامه معنيان: أحدهما: غلظ الساقين، فتكون الخلاخيل من الاتساع بمقدار غلظهما، والثاني: دقة الخصر، حتى لو جعل الخلخال في موضع الوشاح لجال عليه".

ولعله يريد أن يقول في المعنى الأول الذي ذكر أن أبا تمام قصده أن وضع الخلخال في موضع الوشاح يشعر بغلظ الساقين ما دام ما يوضع فيهما، وهو الخلخال يصح أن يوضع في موضع الوشاح.

---

(١) الموازنة ١/١٤٧– ١٤٨.

وهذا يجعله يقترب مما ذكره الآمدي من عادة العرب عند الحديث عن ضمور الهيف ذكر ما يستحسن فيه الامتلاء، وهو هنا الساق.

وينقل تعقيب المرزوقي على ما ذكره الآمدي من أن الوشاح يأخذ من العاتق، وينتهي إلى الكشح، وهو قوله": إنه عدل عن النصفة؛ لأن الذي يقع في الوهم في كلام أبي تمام غير ما ذكره، بل يسبق إلى الخاطر أنه لو جعل الخلخال في مقر الوشاح ومنتهاه لدار عليه، ولم يضق عنه".

ولعله جعل هذا المعنى هو الذي يبادر إلى الوهم؛ لأنه لما كان الخلخال دائريًا فعندما يذكر أنها تتوشح الخلخال، فالذي يناسبه أن يتطرق الذهن إلى منتهي الوشاح، لا في الأجزاء العلوية منه؛ لأنه الجزء الذي يصلح لإحاطة شيء دائري به.

وكذلك يستدل بورود الاستعمال في إطلاق الوشاح على منتهاه، فيذكر نماذج متعددة على ذلك، منها ما أنشده البحتري، وهو قوله:

باتَ نَديماً لي، حتى الصّبَاحْ، أغْيَدُ مَجدولُ مَكانِ الوِشاحْ

وكذلك حكي قولهم: توشح الجبل إذا ارتقى إلى وسطه، كما يقال: تسنمه إذا علاه.

وحكى تفسير بعض أهل العلم لقول امرئ القيس:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرضَ أثناء الوشاح المفصّل

فقال معناه: إذا ما الثريا اعترضت في وسط السماء اعتراض أثناء الوشاح في وسط الإنسان زرت هذه المرأة [١]، وهذا التفسير لقول امرئ القيس ذكره من شراح المعلقات الأنباري والزوزني[٢].

---

(١) النظام ٣٣٨/١٣-٣٤٠.

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – الناشر: دار المعارف [سلسلة ذخائر العرب (٣٥)] الطبعة: الخامسة– صـ:٥١، وشرح المعلقات السبع للزوزني – الناشر: دار إحياء التراث العربي– الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢ م– صـ:٤٨.

وفي تقديري أن إطلاق الوشاح على الجزء السفلي منه من باب إطلاق الجزء على الكل على سبيل المجاز المرسل، ولعله يشير إلى ذلك ما ذكره المرزوقي، وتابعه فيه ابن المستوفي، وهو قوله السابق:" إنه عدل عن النصفة؛ لأن الذي يقع في الوهم في كلام أبي تمام.....".

وأما إيثار أبي تمام إطلاق الوشاح دون ما اقترحه الآمدي من نحو النطاق أو الحقاب؛ وذلك لأن الوشاح يناسب التزين والتجمل وإظهار الحسن، ولاسيما الجزء السفلي منه فهو موضع للجواهر والزينة، فهو يعطي جمالًا وحسنًا، اللذين هما مقصدا أبي تمام.

-تحقيق الغرض المقصود من المشبه.

ومن ذلك في قوله:

يا صاحِبَيَّ تَقصَّيا نَظرَيْكُمَا تريا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصورُ

تريا نهاراً مشمساً قد شابهُ زهـــرُ الربا فـكأنما هو مقمرُ

فقد نقل ابن المستوفي عن الآمدي أن قومًا قد عابوا الصورة التشبيهية السابقة، ويبدو أنه كان ينقل عن كتاب الآمدي المفقود في تفسير أبيات أبي تمام، فإن ذلك غير موجود في الموازنة، يقول:" قال الآمدي: قد أنكر عليه قوم، وقالوا: إنما أراد أن النهار المشمس لصفرة الزهر صار كأنه مقمر، وهذا غلط؛ لأن صفرة الزهر مع نور الشمس مما تزيد في ضياء النهار، وكثرة الشعاع؛ فكيف يجعل ضوء الشمس الذي قد زاد قوة وقوعه على صفرة الزهر وازداد الزهر به إشراقًا ولمعانًا مشبهًا لضوء القمر بالليل؟ ".

ويضيف مظهرًا داعي أبي تمام في التعبير بقوله:(مشمسًا) عند من يعيب الصورة، فيقول : " وإنما كان غرضه بـ(مشمس) من أجل (مقمر)، ولو قال:

تريا نهارا مدجنا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر

لكان أشبه بضوء القمر؛ إذ كان اليوم مدجونًا، واليوم محجوبًا".

فعندهم غرضه من التعبير بقوله:(مشمسًا) من أجل حدوث المطابقة مع (مقمر)، والمناسب عندهم بيان أثر زهر الربا وهو حدوث الظلام؛ فكان الأولى أن يقول: مدجنًا.

وينقل كذلك ابن المستوفي تصرفًا في الشاهد وتعليله له؛ وبيانه أنه كان الأولى عنده أن يقول:

تريا نهارًا مدجنًا وكأنه من صفرة الأزهار ليل مقمر

أما تعليله فهو أنه " أشبه بمذهبه، وكان قد طابق بذكر الليل مع النهار، وهذا لعمري يلزم، ولكن صفرة الزهر أشبه بضوء القمر، وصفرته ليلًا كان ذلك أو نهارًا، ومثل هذا يتسامح به، ولا يدخل في الخطأ ".

وهذا التعليل يتوافق مع ما أولع به أبو تمام من العناية بإيراد الطباق، ولكن من ذهب إليه يرى أنه لا يعد عيبًا؛ فإن الصفرة للزهر تكون في الليل والنهار، وليس في الليل فقط.

ويذكر ابن المستوفي رأيًا نقله الصولي يصوب به ما أنشده أبو تمام، وهو قوله: " وأراد بقوله: (تريا نهارًا مشمسًا) يعني الزهر من كثرته وتكاثفه وخضرته التي قد صارت إلى السواد، وقد نقصت من ضوء الشمس، حتى صارت كضوء القمر"(١).

ويلاحظ أن السياق في وصف جمال الطبيعة وحسنها وما فيها من بهجة تسر النفس، وفيه حث على الاستمتاع بالنظر والتأمل لهذه المحاسن والمفاتن، فالأولى التعبير بقوله (مشمسًا) حتى يتسنى تحقيق ذلك.

وكذلك فضل التعبير بقوله (مشمسًا) على ما اقترحوه (مدجنًا) أنه يبرز التحول والانتقال من غاية الإشراق والضياء، مما هو دال أكثر على كثافة وكثرة

(١) النظام ٨/٨٠-٨١، وينظر شرح الصولي لديوان أبي تمام – تحقيق: د/ خلف رشيد نعمان- الطبعة الأولى- العراق- وزارة الإعلام- سلسلة التراث-١/٥٣٧.

الزهور التي غطت على ضوء الشمس وإشراقها، والتي عبر عنها بالصورة التشبيهية.

وختام ابن المستوفي نقولاته حول الشاهد بما نقله عن الصولي يدل على تأييده له.

وكذلك من حسن صنيع أبي تمام اختياره لكون الزهر هو زهر الربا؛ وذلك لأنه كما يذكر سعد الدين التفتازاني أنضر وأخضر، ولأنها المقصودة بالنظر، وكونها مقصودة بالنظر لأنه كما يذكر الدسوقي أن الشخص بحسب الشأن يبدأ بالنظر للعالي، ثم بما دونه (١)، ويضيف العصام فيقول: "ويمكن أن يقال خصه؛ لأنه يخالطه الشمس في أول طلوعه، وتشبيه أول النهار بالليل المقمر أظهر؛ لأن نور الشمس فيه أضعف"(٢).

وهذا مناسب للتغطية على ضوء الشمس وأشعتها كما هو غاية أبي تمام من الصورة التشبيهية، فهو دال على صحة التشبيه.

وبذلك أيضًا يكون اختياره (زهر الربا) أولى من(صفرة الأزهار) والتي نقل ابن المستوفي اقتراحها.

-تحقيق الغرض المقصود من المشبه به.

ومن ذلك في قوله:

لآلٍ إذا مرّت على السمعِ ناسبَتْ لدقّةِ معنى نظمِها لؤلؤَ العِقْدِ

في هذا الشاهد يشبه أبو تمام ألفاظه باللآلئ، وقد عاب القاضي الجرجاني المشبه به، ورأى أنه لا يحقق وجه الشبه المطلوب، يقول:" ومناسبة اللآلئ في دقة النظم لا يُفتخَر بها، ولا يجعل ما يناسبه في ذلك لآلٍ؛ وإنما يشبه باللآلئ في الصفا

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني للدسوقي- تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي- الناشر: المكتبة العصرية، بيروت- ٣/١٨٠.

(٢) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام – تحقيق د: عبد الحميد هنداوي –الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ٢/١٩٤.

والرونق والحسن، وقد يكون من سقط الخرز وصغاره ما هو أدقّ نظماً من اللؤلؤ؛ وقد تنظِم الأعراب تيجانها من حبّ الحنظَل، وهو أدقّ نظماً من كل جوهر نفيس، وإنما أراد ذِكر السبب الذي أفاده شبه اللؤلؤ فزلّ عنه"(١).

فوجه الشبه المطلوب هو دقة النظم، وهو لا يتحقق في اللآلئ عند القاضي الجرجاني، فهي يشبه بها في الصفاء والنقاء، لا في حسن الترتيب وبديع الانسجام.

هذا ما ذكره القاضي، وقد بين ابن المستوفي أن المرزوقي في كتابه المفقود (الانتصار على ظلمة أبي تمام) ذكر أن الشاهد أنكره البعض، ولم يحدد المنكر، وساق ما ورد سابقًا من إنكار.

وقد احتفى ابن المستوفي بموقف المرزوقي من هذا الإنكار، ويبدو ذلك جليًا من الثناء عليه في مطلع سوقه لكلامه، يقول: " قال الشيخ (يعني المرزوقي) أدام الله عزه قدّر هذا الإنسان أن أبا تمام جعل المناسبة التي بين ما وصف من الألفاظ، وبين لآلي العقد دقة النظم؛ لأنه خفي عليه التشبيه باللآلي، إنما يقصد فيه إلى الصفاء والرونق"(٢).

فهو يبين السر الذي جعل أبا تمام يخطئ في نظر القاضي، وهو أنه ظن أن أبا تمام استخدم التشبيه بلآلي العقد ليحقق معنى دقة النظم، وهو لا يتحقق معها، وإنما يتحقق مع اللآلى معنى الصفاء والنقاء فحسب.

ويبرز المرزوقي سر الإعجاز ومناط المزية في الكلام، وهو أن تحسن المفردات في حد ذاتها، ثم تتلاقى وتتجانس مع أخواتها، فيقول:" إن الذي يعجز في كثير من الكلام المنظوم حتى يسلم لناظمه السبق فلا ينازع فيه بعد تخلصه من الشواب، وسلامته من التكلف ومجانبته للتعمل، وبعد أن جاء عفوًا من طبع استرسل، وخلي لما أراد وقصد فلم يعنف به، ولم يحمل عليه نظمه وترصيعه، ألا ترى أن الألفاظ وإن حسنت مفرداتها وفصحت فمتى لم تجيء في النظام على حد

(١) الوساطة صـ: ٨٧.

(٢) النظام ١٣٨/٦.

التلاؤم والاستواء صارت كاللآلئ المنتخبة والفرائد المرتضاة نظمت للعقد نظمًا وجمعت جمعًا متنافرًا، فيتخلل تجاوزها تنافر وتداخل"[١].

ويوضح تحقق المزية عند أبي تمام في شاهده، فيقول:" وإذا كان الأمر على ذلك فمراد أبي تمام أن الألفاظ التي نعتها في أنفسها كاللآلئ، وأنها إذا قرعت الآذان، وناسبت بترصيعها وحسن نظمها ولطف تأليفها لا إلى عقد دقق ناظمها النظم عند نظمها وجمعها وترتيبها في السلك وتأليفها، حتى صارت كل واحدة منها إلى جنب نظيرتها في النظام، وحتى كسبها ذلك التأليف ما زاد من كرم جوهرها عند الاختبار"[٢].

وهكذا فقد تحقق لأبي تمام الفصاحة والبلاغة في شاهده، فقد حسنت مفرداته مع مناسبتها أخواتها في النظم؛ ولذلك يقول:" فقد حصل في البيت تشبيهان:أحدهما: جعل الألفاظ كاللآلئ، وثانيا: مناسبتها لفرائد العقد في حسن الترتيب ولطف الترصيع".

ويستدل بما جاء في السياق على صحة تفسيره لقول أبي تمام، والذي يدفع عنه الخطأ ، يقول :" ويشهد لما ذكرنا أنه قال: إذا مرت علي الأسماع ناسبت لدقة نظمها، وقال: لؤلؤ العقد فأضاف الثاني إلى العقد ليعلم أن القصد إلى النظم، لا إلى ما يشبه له الشيء باللؤلؤ"[٣] فهو يراعي القيود في المشبه به لاستخراج وجه الشبه، ولم يقتصر على لفظ المشبه به.

ويبدو أن ابن المستوفي مقتنع غاية الإقناع بما ذكره المرزوقي من ردود، وأنه كافٍ في الرد على من أنكر على أبي تمام، ولذا اكتفى بنقله، ولم يعلق عليه بيانيًا.

---

(١) النظام ١٣٨/٦-١٣٩.

(٢) النظام ١٣٩/٦

(٣) النظام ١٣٩/٦

وحق لابن المستوفي ذلك، فقد استوعب المرزوقي الرد على القاضي الجرجاني مدركًا جودة الصورة عند أبي تمام، وتحقيق المشبه به وقيوده وجه الشبه المنشود متلمسًا لدلالاتها بما لا يدع مجالًا للشك والإنكار لما ذهب إليه.

-تحقيق الغرض المقصود من وجه الشبه.

ومن ذلك في قوله:

رَأى الحِمامَ شَقيقَ الخُلفِ فَاِتَّفَقا في ناظِرَيهِ وَإِن كانا قَدِ اِختَلَفا

كِلاهُما رائِحٌ غادٍ يَدُلُّ عَلى مَعروفِهِ وَعَلى حَوبائِهِ اِئتَلَفا

في البيت الأول صورة تشبيهية يشبه فيها الحمام، وهو القتل بأنه خلف في الوعد، وهو على قلب التشبيه.

وينقل ابن المستوفي عن الآمدي في كتابه المفقود تساؤلًا يشكك في وجه الشبه بين الخلف والحمام، فيقول:" قال الآمدي: إن قيل: لما قال: كلاهما يدل على حوبائه وعلى معروفه التلفا؟ والخلف لا يدل على تلف ماله، وإنما يدل على تلف نفسه متى أخلف".

ورأي الآمدي أن الوجه لا يتحقق إلا على ضرب من الغموض والتعقيد، وهذا في جوابه عن تساؤله السابق:" قيل: لما تصور الخلف تصور الحمام صارا جميعًا يدلان التلف على نفسه متى أخلف، وعلى ماله متى وفى، وفي هذا معنى مستقيم، وإن كان فيه تعقيد وغموض".

ويرد ابن المستوفي بما نقله من خط الأرزني[١] في حاشية على كتاب الآمدي المذكور، وهو" أنه قد أفسد المعنى وعماه بهذا التفسير، وإنما أراد أبو تمام أن كل واحد من الحمام والخلف يدل التلف على كل واحد من نفسه ومعروفه، فالحمام يهلك نفسه، والخلف يفسد معروفه"[٢].

---

(١) الأرزني: هو يحيى بن محمد الأرزني أبو محمد النحوي اللغوي، قال ياقوت: إمام في العربية، مليح الخط، سريع الكتابة، وله تأليف في النحو مختصر، وقال الثعالبي: هو أحد مدرسي اللغة وأصحاب الخطوط ببغداد، مات سنة خمس عشرة وأربعمائة- بغية الوعاة ٣٤٣/٢.

(٢) النظام ١٣٥/١١.

وفي رأيي أن هذا هو الوجه الذي أراده أبو تمام، وأنه ليس ببعيد، فالممدوح يكره الخلف كما يكره الحمام، فهو يرى أن خلف الموعد والحمام سيان، وإن كانا قد اختلفا، فالخلف يتلف المعروف، فكأنه حمام، كما يتلف الحمام النفس، يستشعر ذلك من قوله في البيت الأول: (فاتفقا في ناظريه، وإن كانا قد اختلفا)، وكذلك البيت الثاني.

-تحقيق الغرض المقصود من الاستعارة.

ومن ذلك في قوله:

إنَّ الطلاقةَ والندى خيرٌ لهمْ مِنْ عِفَّةٍ جَمَسَتْ عَلَيْكَ جُمُوسَا

فقد نقل ابن المستوفي عن المرزوقي إنكار القاضي الجرجاني لقول أبي تمام؛ وذلك لأنه لا يليق استخدام لفظ الجموس في وصف ممدوحه، حيث يقول القاضي:" فليتَ شعري عنه لو أراد هجوه، وقصد الغضّ منه، هل كان يزيد على أن يذم عفّته، ويصفها بالجموس والجمود، وهما من صفات البرد والثقل؟! .[١] "

أما موقف المرزوقي فيبين ابن المستوفي أنه رأي أن للألفاظ والصور مواضعًا متبعة، وأعرافًا مألوفة تستخدم فيها فيقول :" للألفاظ حدود، من فارقها كان من كمن نقل الشيء من موضعه، واستعمله في غير وجهه، ولا فرق في ذلك بين الألفاظ والأوصاف والتصوير والتشبيه، وكما أن من فارق المألوف في شيء من ذلك بالزيادة فيه والنقص منه عيب، ولم يرتض، كذلك من فارقه بتغير حاله في العرف أو طريقته في الاستعمال أنكر ذلك منه ولم يستطب".

ويبين كذلك دواعي العدول عن هذا الأصل المتبع في باب الاستعارة، فيقول عقب ما تقدم :" إلا أنه قد يستعار اللفظ ويوضع في غير موضعه، ويكون المراد إلحاق الذم إذا كان المستعار في شرفه ورتبته دون المستعار له، وقد يكون المراد إلحاق المدح إذا كان على العكس من ذلك".

(١) الوساطة صـ: ٧٤.

ولا تتوقف الاستعارة عنده على هذا المعنى، فيقول:" وقد تتجرد الاستعارة من المدح أو الذم، ويقصد به تحقيق المعنى، أو تأكيد التشبيه".

ويرى أن هذا الوجه هو الذي جاء به قول أبي تمام، يقول: " وإذا كان الأمر على هذا فلا يمتنع أن يكون أبو تمام قصد في وصف العفة بالجموس على تحقيقها وثباتها، كما يقال: دين ثخين وستر ثخين، وهو صلب الدين والرأي وصليبهما"(١) فالاستعارة في هذا النوع لمحض تحقيق المعنى، ولا تحمل إيحاءات من مدح أو ذم.

وفي حقيقة الأمر أن الاستعارة تحمل إيحاء بالذم كما ذكر القاضي الجرجاني، فإن الجموس من صفات البرد والثقل والبلادة، ولم يكن هذا الموضع فقط هو موضع الخلل في وصف الممدوح، بل أتبعه بما هو نظير له، وهو قوله:

لو أنَّ أَسْبَابَ العَفافِ بلا تُقى نَفعَتْ لقد نَفَعتْ إذاً إبْليسَا

وعلى الرغم من كل ذلك فإننا إن أقررنا بأن المقصد من الاستعارة هو تحقيق المعنى فقط، فإن ذلك ليس بالجيد إطلاقًا، بل بعيد عن الحسن، يقول د. أبو موسى:" أصدق العبارات الأدبية وأملكها للقلب هي ما استطاعت أن تنبئك وتفصح لك عن جوانب تلك النفس التي صاغها وتكشف ما يدور في محيطها من خوالج وخواطر"(٢)، فضلًا عن خروجه عن حد المألوف المعتاد في التعبير بالجموس.

ولعله قد أراد من لفظ الجموس الإشعار بتمسك الممدوح بالعفة تشبثًا عظيمًا، وعدم القدرة على التخلي عن هذا الخلق، وذلك من خلال الثقل اللفظي، والدلالة معنوية لها على الجمود والتصلب.

والجمود والتصلب على العفة ليس بالصفة السيئة في نظره، ولكن أولى منه الطلاقة والندى، فلعله مما دعاه إلى اختيار هذه اللفظة.

---

(١) النظام ٩/٢٨٠-٢٨١.

(٢) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م- صـ: ٣٢٢.

وكذلك قد يكون السبب في استخدامه لهذا اللفظ أن يكون أقوى في إبراز التفاوت بين الطلاقة والندى اللذين يبغيهما أبو تمام ويلح عليهما وبين العفة، فاختار في التعبير بالتمسك بها لفظًا دالًا على ما ذكره القاضي الجرجاني من نحو الثقل.

ومن ذلك في قوله :

تحمَّلْتَ ما لوْ حمِّلَ الدهرُ شطرهُ لفكَّرَ دهراً أيُّ عبأيهِ أثقلُ

فالآمدي يرى أن أبا تمام قد أتى بصورة غريبة، فقد جعل للدهر عقلًا، وجعله مفكرًا في أي عبأيه أثقل؛ ولذا لم ترق الصورة له، فيقول:" وما من شيء أبعد من الصواب من هذه الاستعارة، وكان الأشبه والأليق بهذا المعنى لما قال: تحملت ما لو حمل الدهر شطره أن يقول: لتضعضع أو لانهد أو لأمن الناس صروف نوازله، ونحو هذا مما يعتمده أهل المعاني في البلاغة والإفراط، وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارات متفرقة في أشعار القدماء فاحتذاها، وأحب الإبداع والإغراب بإيراد أمثالها، فاحتطب واستكثر منها".

ومن خلال النص السابق يتبين أن سبب ازدراء الآمدي للصورة هو خروجها عما يجب عند أهل البلاغة من إيضاح المعنى لا إغرابه وإغماضه، فهو يكره الإغراب في التصوير، فالصواب أن يقول: لتضعضع أو لانهد، حتى يكون على سنن أهل المعاني.

وعلى الرغم من ورود مثل هذا الصورة ونماذج مقاربة لها في شعر الأولين، إلا أنه لا يرى ذلك كفيلًا بإخراجها من حد الإغراب إلى الوضوح والبيان، يقول: " ومثل هذا في كلامهم قليل جدًا، وليس مما يعتمد، ويجعل أصلًا يحتذى عليه، ويستكثر منه".

ورأى الآمدي أن أحسن من هذا قول البحتري:

وَلَوْ بِعْتُ يَوْماً منكَ بالدّهرِ كُلّهِ لَفَكّرْتُ دَهْراً ثانِياً في ارْتِجَاعِهِ[١]

(١) الموازنة ١/ ٢٧١.

ونظر المرزوقي إلى قول أبي تمام نظرة مغايرة، فيقول في تفسيره: " استقللت من الأثقال، واضطلعت من الأعباء ما لو جمع، ثم جعل نصفين، فقيل للدهر: احمل أيهما شئت لبقي الدهر يفكر دهرًا أي النصفين أثقل، فيتركه ويعمد إلى الأخف"(١).

فالمرزوقي يبدو أنه يقبل التركيب، ويحمله على معنى يترتب عليه الاستعارة، التي تجعل الدهر مخاطبًا ومفكرًا.

فالقصد من التركيب عند المرزوقي المقارنة بين الشاعر وبين الدهر في القدرة على التحمل، وإبراز صعوبة الأعباء التي يتحملها، مما جعله مقبولًا لديه.

ويبدو أنه لم يسترع اهتمام المرزوقي ما ذكره الآمدي من الخروج عما جرى به سنن العرب.

وفي تقديري أن ما استخدمه أبو تمام وتأويل المرزوقي له يجعلنا نستشعر هول وشدة ما يضطلع به الشاعر من اصطبار على الهموم والأحزان، فالدهر بقوته وعظم اقتداره يرى الثقل في شطري هموم الشاعر، بل يتحير في تقدير الأثقل عند التجزئة.

وكذلك اختياره الدهر في الصورة يبرز امتداد زمن الثقل، فهو في كل الأوقات والأزمنة على هذا النحو من الثقل.

بالإضافة إلى أن الدهر مصدر للكوارث والبلايا في التعبير الأدبي، ومع ذلك يرى ثقل ما يتحمله الشاعر ويتردد في تقدير الأثقل، مما يدل على ندرة الإصابة بالكوارث والبلايا التي أصيب بها.

أما قول البحتري الذي فضله الآمدي على قول أبي تمام، فهو يختلف في موضوعه ومعناه عما عند أبي تمام، فهو تعبير عن قيمة الوقت مع الحبيب، وإن كان اختلاف بينه وبين قول أبي تمام، فهو أنه أقل مبالغة منه.

---

(١) النظام ٢٦٩/١٣.

- تحقق الغرض المقصود من المعنى.

ومما يندرج في تحقيق المقصود الاعتماد على معنى يندفع بـه التعـارض، وذلك في قوله:

قِرى دارِهِم مِنّي الدُموعُ السَوافِكُ وَإِن عادَ صُبحي بَعدَهُم وَهوَ حالِكُ

وَإِن بَكَرَت في ظُعنِهِم وَحُدوجِهِم زَيـانـِبُ مِن أَحبابِنـا وَعَـواتِـكُ

يقول الآمدي:" ظاهر هذا القول كأنه عكس لما جرى في العـادة اسـتعماله؛ لأنك لا تقول: أنا مشتاق وإن غبت عني، وأنا قلـق وإن هجرتنـي، وبـاك وإن ضربتني؛ لأن الشوق من أجل غيبته، والقلق من أجل هجرته، والبكاء مـن أجـل وقوع الضرب به".

فالآمدي يرى أن ما صاغه أبو تمام يؤدي إلى عكس في المعنى وتعـارض في بنائه، حيث يتوقع القارئ أن يكون البكاء بسبب غياب الأحبة، وليس بقاؤهم.

ويبين الآمدي الوجه الذي يصح به ما صاغه أبو تمام، فيقول:" وإنما كـان وجه الكلام أن يقول: قري دارهم مني الدموع؛ لأن صبحي بعدهم وهو حالك، ولئن بكرت في ظعنهم وحدوجهم زيانب".

ويوضح ما بنى عليه هذا التأويل، فيقول:" ولكن هذا يحمل علـى أنـه أراد القوم الذين حالوا بينه وبين أحبته أي اقري دارهم الدموع وإن جعلوا صبحي حالكًا، وإن بكرت حبائبي في ظعنهم" يريد أن من يخاطبه هو الذي يعيقه عن لقاء الأحبة، لا الأحبة أنفسهم، وبهذا يندفع المأخذ.

وقد ذكر ابن المستوفي أن ما ذكره الآمدي في حل الإشكال هو مـراد أبـي تمام، وبه فسر الخارزنجي قول أبي تمام(١).

وعلى تقدير أن أبا تمام أراد الاحتمال الأول الذي ذكره الآمدي فيمكن تفسير داعيه بأن أبا تمام أراد الدلالة على شدة الحزن وفرط التعلق بهم، حتى إنه يبكي في وجودهم أيضًا.

(١) النظام ١٢/٤١٧-٤١٨.

المبحث الثالث

مراعاة السياق

ومن أسس الدفاع عن أبي تمام الاعتماد على السياق، ويساعد مراعاة السياق في تقديم تفسيرات دقيقة للنصوص، ويضمن تلاؤم النص مع موضوعه الذي يتناوله.

ومن ذلك في رد ابن المستوفي على مأخذ الآمدي في تخطئة التوكيد في قوله:

سَمَا للعُلَا مِن جانبيها كِلَيْهما سُمُوِّ عُبَاب الماءَ جَاشَتْ غَوَارِبُهْ

فالآمدى يرى أن التوكيد بغير فائدة في هذا الموضع، وإن كان مستملحًا في غيره؛ ولذا اقترح تعديلًا على ما أنشده أبو تمام.

يقول: " لم يفدنا بـ(كليهما) فائدة؛ لأن أحدًا لم يكن يظن أنه سما لها من جانب واحد، والتوكيد لعمري غير منكر، ولكنه يكون في موضع أحسن منه في غيره، ولو قال: سما للعلا حتى علا ذروة العلا لكان أشبه بمذاهبه، ولكن الجيد النادر قوله في خالد بن يزيد بن مزيد"(١)

أما ابن المستوفي فيرى أن المقارنة بين المعنيين المؤكدين عند أبي تمام غير صحيحة لاختلاف موضعهما، يقول:" ثم هذا الذي ذكره الآمدي هنا وعابه ووصفه ثم استجاده مختلف معناها، وهو إنما يذكر المعنى مع صاحبه، فلا وجه للجمع بينهما على رأيه، وقوله في التوكيد وما عابه قول لا حجة فيه "

ويضيف في رد ما اقترحه الآمدي أمرًا يتعلق بالموسيقى اللفظية، فيقول: "وأما قوله: سما للعلا حتى علا ذروة العلا فقد جاء بتكرير لفظة (العلا) مرتين مع ذكر(علا)، وهذا وإن جاز فهو ردئ".

---

(١) الموازنة للآمدي تحقيق : د. عبد الله المحارب (رسالة دكتوراه) – الناشر: مكتبة الخانجي – الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م– ٣/٩٥-٩٦.

ويخلص ابن المستوفي إلى السر الذي من أجله جعل للعلا وجهين فيقول : "لأن أبا تمام جعله ارتفع إلى العلا من جانبيها، ولها جانبان سهل وصعب، ألا ترى إلى قول الخريمي(١):

وَدُوْنَ النَّدَى مِنْ كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ لَهَا مَصعَدٌ حَزنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْل (٢)

فجعل للندي ثنية لها مصعد ومنحدر، فكذا جعل أبو تمام للعلا جانبين: سما الممدوح إليهما من جهتهما، على أنه بين جانبي العلا بقوله:

جَدِيرٌ بِأَنْ يَستحيِيَ اللهَ بادِيًا بهِ ثُمَّ يَستَحيي النَّدَى ويُراقِبُهْ

فاستحياؤه من الله عز وجل أحد جانبي العلا، واستحياؤه من الندى مراقبته إياه الجانب الآخر، وهذا مما لا يدفع أن يكون قد بني قوله:(سما للعلا من جانبيها كليهما) على ما سبق في البيت الأول"(٣).

وهكذا استطاع ابن المستوفي أن يبين وجه ما ذهب إليه أبو تمام وصحته، ويظهر مناسبته وتلاقيه مع السياق، وهو البيت السابق لمحل الشاهد، وتقاطعه مع الموروث في التعبير عن كيفية الوصول والارتقاء إلى المجد، كما في قول الخريمي.

ومن الاعتماد على السياق، وذلك في التعليق علي ما ذهب إليه الآمدي في قول أبي تمام:

---

(١) هو إسحق بن حسان، وكني أبو يعقوب، أصله من خراسان، اتصل بمحمد بن منصور كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جيدة، ينظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي- دار الكتب العلمية – بيروت،٣٢٦/٦- وزهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني – الناشر: دار الجيل، بيروت- ١١١٤/٤.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ- الناشر مكتبة الهلال بيروت ١٤٢٢هـ، ٢٢٩/١، الحيوان للجاحظ- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- الناشر: دار الجيل ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، ٩٥/٢، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري – الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة- الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ، ٨٧/٣.

(٣) النظام ٦٢/٣-٦٣.

لو كانَ في عاجلٍ من آجل بدلٌ لَكانَ في وَعْدِهِ منْ رِفْدِهِ بَدَلُ

وقد خطأ الآمدي أبا تمام في هذا الشاهد قائلًا : " ولم لا يكون في عاجل من آجل بدل؟! والناس كلهم على اختيار العاجل وإيثاره وتقديمه على الآجل، ألا ترى قول القائل الذي قد صار مثلًا: والنفس ملوعة بحب العاجل؟! (١)، والعاجل أبداً هو المطلوب والمرغوب فيه، حتى إن قليلة يؤثر على كثير الآجل."

وذكر الآمدي الوجه الذي يصح به قول أبي تمام، فقال:" وكان وجه الكلام الذي يصح به المعنى ويستقيم أن يقول: لو كان في عاجل قول بدل من آجل فعلٍ لكان في وعده من رفده بدل".

ويمنع الآمدي أن يكون أبو تمام قد قصد ما يصح به المعنى، فيقول: " فإن قال: فهذا هو الذي أراده أبو تمام، قيل: ليس الأمر كذلك؛ لأن طريقة لفظه في البيت أن يكون معناه لو كان في شيء عاجل من شيء آجل بدل" فيكون المعنى الذي قصده أبو تمام في نظر الآمدي عامًا، وليس خاصًا.

ويضيف : " فلو أراد ما ظننته وذهبت إليه – وذلك ليس بمعلوم، ولا في البيت عليه دليل – لم يلتفت إلى إرادته؛ لأنك إذا فصلت الإضافة من عاجل قول أو آجل فعل ففرقت بين المضاف والمضاف إليه لم يدل أحدهما على الآخر؛ لأن لفظة ((عاجل)) لا تدل غير مضافةٍ على ما تدل عليه لفظة " عاجل قولٍ " كما أن لفظة " آجل " لا تدل على " آجل فعلٍ " ولا يدلان أيضاً على شيء مضمر".

ويسوق مثالًا لاعتراض الأصمعي على ذي الرمة في حذف المضاف إليه لعدم تعينه، فيقول: " ألا ترى أن الأصمعي أنكر على ذي الرمة قوله يصف الوتر: كأنه في نياط القوس حلقوم، فقال: حلقوم ماذا ؟ إذ كان يجب أن يقول: حلقوم طائر، أو حلقوم قطاةٍ، أو غيرهما مما يشبه الوتر في الدقة، وإلا فقد يكون الحلقوم حلقوم فيل، أو حلقوم بعير".

---

(١) هو لجرير ينظر ديوانه بشرح محمد بن حبيب– تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه– الناشر: دار المعارف، القاهرة – مصر– الطبعة الثالثة– ٧٣٧/٢.

وهو على الرغم من اعتراضه على ذي الرمة، إلا أنه يفضل صنيعه على صنيع أبي تمام، وذلك جريًا على ما اعتاده العرب في تشبيه الوتر بحلقوم الطائر ونحوه: " وهذا من الأصمعي إنكارٌ صحيحٌ، وإن كان لا يلزم ذا الرمة فيه ما يلزم أبا تمام؛ لأن العرب لا تشبه الوتر إلا بحلقوم الطائر، وذلك قول الراجز: لأم ممر مثل حلقوم النغر، أخذه أبو نواسٍ فقال: لأم كحلقوم النغر، وقال الراجز: لأم كحلقوم القطاة تغترف".

ويقر الآمدي في نهاية تعقبه أن الأمر عند أبي تمام مبني على الإغراب، فيقول:" أبو تمام إنما أراد أن هذا الممدوح يقيم وعده لصحته مقام عطيته، وأحب الإغراق على رسمه فأخطأ في تمثيل ما مثل بذكر العاجل والآجل؛ لأنه أطلق القول عموماً لا يدل على الخصوص"

ويوازن بينه وبين البحتري، فيقول: "والجيد النادر في هذا قول البحتري:

لو قليلٌ كفى امرأ من كثيرٍ لاكتفينا بقوله من فعاله[1]

أما ابن المستوفي فقد نقل ما ذكره المرزوقي في كتابه المفقود (الانتصار من ظلمة أبي تمام)، وهو عندما يسوق رأي الآمدي يغض من شأنه فيقول عنه: " وقال هذا الإنسان أحال أبو تمام في قوله: لو كان في عاجل من آجل بدل"، وهذا دال على عدم موافقة ابن المستوفي لما ذهب إليه الآمدي.

وأما عندما ذكر ما ذهب إليه المرزوقي يصدر كلامه عنه بقوله:(قال أبو علي أدام الله عزه)، ويسوق ما ذكره، فيقول: " وليس فيما ذكره أبو تمام مستحيل إذا فهم عنه؛ وذاك أن مراده: لو كان فيما يتعجل من أوائل الأمور ومقدماتها بدل مما يتأجل من أواخرها، ومكملًا لها لكان في وعد هذا الرجل لكونه صدقًا محققًا ومنجزًا مقربًا بدل من رفده وعطيته".

(١) الموازنة ١/١٩٣-١٩٦.

وقد بين ابن المستوفي السر في تخطئة الآمدي لأبي تمام، فقال: " وإنما أتى هذا المعترض من جهة أنه تصور عاجلًا من الأمور كاملًا في نفسه، لم يجعل مقدمة لغيره ويختاره عاقل على آجل مستقبل أكمل منه".

وفي تقديري أن المعنى الذي قصده أبو تمام هو ما ذكره المرزوقي وجاراه فيه ابن المستوفي، وهو يحتاج إلى تأمل وروية في إدراكه والوقوف عليه، وهو ما أشار إليه ابن المستوفي عندما ذكر التعارض بين ما أراده أبو تمام وبين ما فسر به الآمدي، وهو قوله: " ومن تأمل هذا الكلام علم التباين بين المقصدين"(١).

وإذا كان في الشرط(ولو كان عاجل...) شيء من الخفاء فإنه يمكن أن يلمح من جواب الشرط(لكان في وعده...) مقصوده منه على النحو الذي أوضحاه، ولذا يعتبر د. فايز الداية هذا الموضع من المواضع التي أهمل فيها الآمدي استخدام السياق في تخصيص العام، على الرغم من اعتماده على السياق في مواضع أخرى من أجل تخطئة أبي تمام(٢).

وقد توكأ المرزوقي وابن المستوفي على السياق في إدراك الحذف والمعنى المراد، ولعل مما يدل على ذلك قوله السابق: " ومن تأمل هذا الكلام".

وملاحظ أنه قد اعتمد الآمدي في تقدير المحذوف في بيت ذي الرمة على المعتاد من كلام العرب، وجعل هذا الحذف أيسر شأنًا منه عند أبي تمام، وهذا غريب منه؛ لأن دلالة السياق على المحذوف عند أبي تمام أقرب إلى الإدراك، أو على الأقل لا تقل.

وإذا كان الآمدي قد أقر في نهاية تعقبه أن الأمر عند أبي تمام مبني على الإغراب، فهذا يؤدي إلى أنه لا توجد استحالة كما صرح في بدء كلامه.

---

(١) النظام ١٣/ ١٢٥- ١٢٨.

(٢) ينظر علم الدلالة : النظرية والتطبيق: دراسة دلالية تأصلية نقدية د. فايز الداية – دار الفكر دمشق- الطبعة الثانية ١٩٩٦م، صـ:٥٥.

وعند النظر فيما استجاده الآمدي من قول البحتري في إطار المعنى الذي قصده أبو تمام، وهو:

لَوْ قَلِيلٌ كَفَى امْرَأً مِنْ كَثِيرٍ لاكْتَفَيْنَا بِقَوْلِهِ من فَعَالِه

يلاحظ أنه يترتب عليه أنه يصف الوعد بأنه قليل وهذا غير دقيق، فهو لم يذق الموعود ولم يخبره حتى يصفه بالقلة، فضلًا عما فيه من قدح في عطائه.

ومن الاعتماد على السياق في الدفاع عنه في قوله:

هُنَّ البَجَارِيُّ يَا بُجَيرُ أَهدَى لَها الأبؤُسَ العُوَير

فقد فسر الآمدي في كتابه المفقود على معاني شعر أبي تمام (البجاري) تفسيرًا أدى به إلى القول بانقطاع الصلة بين شطري البيت، يقول :" البجاري: الشدائد والمحن التي يبتلى الإنسان بها، واحدها بُجريّة وبجارى، وقوله: أهدى لها الأبؤس الغوير من قولهم في المثل: عسى الغوير أبؤسًا، كان أصله أن قومًا نالتهم شدة، فأرادوا أن يلجأوا إلى غار، فقال بعضهم: عسى الغوير أبؤسًا، أي عسى الغوير أن نلاقي فيه ما نكرهه".

ويوضح الآمدي وجه عدم التناسب بقوله:" (أهدى لها الأبوس الغوير) كلام ردئ، ووضع منه المثل في غير موضعه؛ لأنه جعل الغوير مهديًا الأبؤس إلى البجاري، وهي نفسها أبؤس".

ويفترض فرضًا هو ردئ في نظره كذلك، فيقول:" فإن حملت قوله:" (أهدى لها) على أنه أراد نفسه، فتكون الكناية راجعة إلى النفس، وإن لم تذكر جاز، وهو على جوازه ردئ، أي جاء نفسي البؤس من حيث قدرت خلافه".

أما ابن المستوفي فينقل من الحاشية على الكتاب المذكور سابقًا بخط الأرزني، ما مؤداه: أن قوله: (هن البجاري) — والذي ترتب علي تفسيره السابق عند الآمدي عدم التناسب بينه وبين ما بعده — فيه الضمير يعود إلى الإبل، فهو صورة تشبيهية يشبه فيها الإبل بالشدائد، يقول:" إنما أراد أبو تمام بقوله:(هن البجاري) الإبل، جعلها دواهي لقطعها من الأرض ما لا يقطعه غيرها، وسرعتها

وشدة مضائها، كما تقول: فلا داهية إذا تعجبت منه، وقوله :(أهدى لهـا الأبـؤس الغوير) أي جاءها التعب وطول السير من حيث لم تظنه، وإنما أراد ما يحملها عليه من طول أسفاره، فإن الإبل لم تظن ذلك به، ولا أنه يحملها على ما حملها عليه، أو يريد أنه كان وصل إلى جهة ظن أنه يستغني بوصوله إليها عن الأسـفار، فكـأن الأمر بضد ما توهم، فعبر بذلك عن الإبل، وهذا واضح، ألا ترى إلى قوله:

يومًا مقام على وقارٍ وسائرُ الدهرِ فهو يسيرُ

وإنما أراد ما يلحقه ويلحق إبله من التعب وطول الأسفار".

وتعقيب ابن المستوفي قول الآمدي بما خطه الأرذني يدل على موافقتـه لـه وتأييده له، وهذا القول إلى جانب ما يحققه من تناسب بين شطري البيـت، فإنـه يتوافق مع السياق اللاحق، والذي أوضحه بذكر ما يلي موضع الشاهد، ففيه حديث عن رحلة وسير وسرعة بالغة، يدل على ذلك أيضا قوله عقب البيتين المتقدمين :

في فتيةٍ إن سَروا فَجِنٌ أو يمّمُوا شُقةً فطير

قد ضج من فعلهم جديل بنسله واشتكى غرير

ولذا حق أن ينقل الأرزني وصف صنيع الآمدي بأنه تعسف وغلـط قبـيح وفساد في المعنى[١].

(١) النظام ٨/ ١٦٢-١٦٣.

المبحث الرابع

مراعاة التناسب

والتناسب يبين مدى وعي الناظم بالتراكيب ووقوفه على تناغم جزيئات النظم، ويعزز جمال النص عند النظر إليه بصورة كلية متكاملة، ومن الدفاع عن أبي تمام كان الاعتماد على هذا الأساس، ومن ذلك في قول أبي تمام:

وَمُعتَرَكٍ لِلشَوقِ أَهدى بِهِ الهَوى إِلى ذي الهَوى نُجلَ العُيونِ رَبائِبا

فقد ساق ابن المستوفي تفسير الصولي لقول أبي تمام:(ومعترك للشوق)، فقال:" شبه موضع اجتماعه مع حبائبه، وملاعبته لهن بمعترك، وهو موضع محاربة، ثم احترس بحذق فقال : (للشوق)أي ليس بمعترك حرب".

وساق ابن المستوفي اعتراضًا للآمدي على ما أنشده أبو تمام وهو قوله:" وفيه سؤال: هو أن يقال: إذا وقعت الزيارة والاجتماع في موضع فإن ذلك الموضع يسقط فيه الشوق، فلا أن يكون معتركًا للوصل أولى".

ويسوق كذلك مسوغًا أورده الآمدي لقبول التعبير بالشوق، فيقول:" والعذر له أن يقال: إنه إنما كان معتركاً للشوق بعد تلك الحال التي قُيّضت فهو أبداً مشتاق إلى ذلك الموضع الذي ذكره".

ويورد ابن المستوفي موقف المرزوقي، فهو قد اختار أن تكون الراوية (أهدى به الكرى إلى ذي الهوى) حتى ينسجم مع قوله: (معترك للشوق)، واستدل بأمور ثلاثة، أولها: التلاؤم مع قوله (معترك الشوق)، يقول فيما نقله ابن المستوفي: " ولو كان أبو تمام ساعد الهوى وعاين المحبوب لم يكن يقول: (معترك الشوق)" وثانيها: أنه لا فائدة للتركيب مع رواية الصولي، يقول: " ولو كانت الرواية كما زعم لم يكن لقوله : (أهدى به الهوى) فائدة؛ لأن الزيارة إذا أمكنت واتفقت فرصة الالتقاء بين المحبين إذا انتهزت لا يكون من فعل الهوى فيجعل الإهداء له"، وثالثها: التكرار، يقول: ومع ذلك فتكرار الهوى يشين البيت، وهو بمعنى واحد".

وينبه المرزوقي على أن المعنى الواحد يمكن التعبير عنه بمعارض كثيرة، كما كان يفعل البحتري، يقول:" وإن كان جعل إهداء(نجل العيون) للكرى، لكنهم بحذقهم يغيرون المعارض، وإن كانت تختلف على معنى واحد، وناهيك في وصف الخيال، وهذا أبو عبادة البحتري واصفًا، فلقد عددت له أكثر من مائة موضع يخيل لك في محله أو أكثره أنه أبدع فيه، ولم يطرا بجانبه ما مضى له".

ويضرب مثالًا من شعر البحتري لذات المعنى عند أبي تمام، ويستخدم فيه لفظ الكرى، فيقول: " وقد أخذ هذه اللفظة من أبي تمام في موضع فقال:

إذا ما الكَرَى أهْدَى إليّ خَيَالَهُ، شفَى قُرْبُهُ التّبريحَ أوْ نَقَعَ الصّدَى"

أما ابن المستوفي فيعلق على ما ذُكر، فيرى أن الرواية هي ما رواه الصولي، سواء في قوله: (معترك للشوق)، أو في قوله: (أهدى به الهوى...)، يقول: "الرواية ما رواه الصولي، وسياق اللفظ في البيتين يدل على صحته، إذ وصف الليالي بالقصر، وتشبيهها في الحسن بالكواعب لا يكون إلا دليلًا مع معانيه".

وهذا هو الدليل الأول الذي يراعي فيه السياق، فقد سبق هذا البيت قوله:

أأيامنا ما كُنتِ إلاَّ مواهبا وكُنتِ بإسعافِ الحبيبِ حبائبا

سنُغربُ تجديداً لعهدكِ في البُكا فَما كُنْتِ في الأَيَّامِ إلاَّ غَرائِبا

فالشاهد جاء عقب حديث عن أيام اللذة والمتعة والهناء بالحبيب، وبيان أنها أيام فريدة من نوعها تختلف عن غيرها، فما هي بالنسبة إلى غيرها إلا كما قال : (فما كنت في الأيام إلا غرائبا)؛ ولذا حق أن يتأجج شعوره شوقًا لها، فيعبر عنها بأنها (معترك للشوق).

وكذلك مما يشعل جذوة الشوق ما جاء فيما ولي محل الشاهد مباشرة من وصف الليالي بالقصر، والافتتان بالحبائب وحسنهن في التعبير عنهن بـ(الكواعب)، وذلك في قوله:

كواعبُ زارتْ في ليالٍ قصيرةٍ يُخيَّلنَ لي منْ حُسنهنَّ كواعبا

أما الدليل الآخر على صحة رواية الصولي عند ابن المستوفي، ففيه نقض لما ذكره المرزوقي من الدليل الثاني عنده من استدعاء رواية(أهدى به الكرى...) التي تتناسب مع (معترك الشوق) في نظر المرزوقي، يقول: " قوله- أي المرزوقي-: (إن الزيارة إذا أمكنت لا يكون من فعل الهوى) غلط، بل لا تكون إلا من فعل الهوى، ألا ترى إلى قوله:

وما زُرتُكم عمدًا ولكنّ ذا الهوى إلى حيثُ يَهوَى القلبُ تَهوِي به الرِّجْلُ.[٢]"[١]

أما احتجاج المرزوقي بأن تكرار الهوى يشين فإن تقديري أن تكرار الهوى مناسب لاستمرار الشوق، وأن الوصل لم يفلح في إطفاء جذوته، فكما ظل الشوق مستمرًا متأججًا تكرر داعيه وباعثه وهو الهوى.

وإذا كان السياق هو الذي استدعى التعبير بالشوق في (معترك الشوق) كما ذكر ابن المستوفي، فهو كذلك الذي استدعى التعبير بالهوى في قوله: (أهدى به الهوى...)، والأمر يختلف في شاهد البحتري فإذا راجعت إلى أسلوب الشرط الذي جاء فيه لفظ (الكرى) لوجدت جوابه(شفَى قُرْبُهُ التّبريحَ أوْ نَقَعَ الصّدَى) فالحديث عن شفاء من آلام الوجد، فالشوق والهوى من شأنهما أن يؤججا الألم ويزيدا الوجع والوصب، فالأليق(الكرى) إذ النعاس مرتع اللذة، ومسرح رغائب الشعور والوجدان.

ومنه تعليق ابن المستوفي على قول أبي تمام:

لَعِبَ الشَّيبُ بِالمَفارِقِ بَل جَد دَ فَأَبكى تُماضِراً وَلَعوبا
خَضَبَت خَدَّها إِلى لُؤلُؤِ العِق دِ دَماً أَن رَأَت شَواتي خَضيبا
يا نَسيبَ الثَغامِ ذَنبُكَ أَبقى حَسَناتي عِندَ الحِسانِ ذُنوبا
وَلَئِن عِبنَ ما رَأَينَ لَقَد أَن كَرنَ مُستَنكَراً وَعِبنَ مَعيبا

(١) البيت المذكور نسبه ابن المعتز لعبد الملك الحارثي- طبقات الشعراء صـ : ٢٧٩- تحقيق: عبد الستار أحمد فراج- الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: الثالثة.

(٢) النظام ١٨٥/٢-١٨٦، وينظر الموازنة١٥٩/٢.

فقد ذكر الآمدى في الموازنة أن البعض يذهب إلى أن في الأبيات تناقضًا[١] ، وقد أوضح ابن المستوفي ما ينقله الآمدى من تناقض بصورة أوضح مما في الموازنة، وكان ينقل عن كتاب الآمدي المفقود، يقول ابن المستوفي: " قال الآمدي: ومما يسأل عنه من معانيه قوله- وأنشد الأبيات الأربعة- فيقال: كيف يقول: أنها بكت؟ وأنها خضبت نحرها دمًا؟ ثم يقول: إن حسناته صرن ذنوبًا، وأنهن عبن ما رأين، وكيف تكون باكية على شبابه، وعائبة له في حال واحدة ؟! ".

ويذكر ابن المستوفي احتمالات أوردها الآمدي تدفع عدم التناسب، فيقول: " أنها إنما بكت أسفًا على الشباب، وهربًا من الشيب، فقد تبكي الغانية إذا عرضت على الأشيب، وتقول: لا أريده، وقد يجوز أن يكون اضرب عن هذه الغانية، وعن معنى البيت الأول إلى حبائب أخر عبنه وزرين عليه، وقد يجوز أن تكون الباكية عليه هي العائبة؛ لأنها تبكي عليه في حال، وتضحك منه في حال أخرى.... فالمعنيان صحيحان لا يتناقضان، وقد قال أبو تمام في موضع آخر:

يَضْحَكْنَ مِن أَسَفِ الشَبابِ المُدبِرِ يَبْكِينَ مِن ضَحِكاتِ شَيبٍ مُقمِرِ"

وبعض هذه الاحتمالات التي يوردها الآمدي بعيدة تماما عن مراد أبي تمام، مثل قوله:(اضرب عن هذه الباكية....) إذ ما الفائدة من الانتقال من الباكيات عليه إلى العائبات شيبه وهرمه ؟!.

ولعل أقرب هذه الاحتمالات ما يورده في احتماله الأخير، ولكنه لا يخلو من تخطئة أبي تمام فيما استدل به من شعره على هذا الاحتمال، يقول: " فقوله : (يضحكن من أسف الشباب) في غاية الرداءة؛ لأنه غير معروف في كلامهم الضحك من الأسف، بل الضحك يكون منهن استهزاء وسخرًا، والبكاء منهن قليل في مثل هذا، وإنما يبكي علي الشباب صاحبه، فأما المرأة فليس عندها إلا الصدود والإعراض والمقت والانحراف، هكذا طريقة القوم في هذا المعنى، وهو الحقيقة".

(١) الموازنة ٢/ ٢٠٣.

ويذكر ابن المستوفي أن في حاشية كتاب الآمدي المفقود في تفسير شعر أبي تمام بخط الأرزني رد على ما ذكره الآمدي، يقول:" يجوز أن يكون أراد أنهن ضحكن من شدة الأسف والحزن، وهذا يعتري من يهجم عليه أمر عظيم من الحزن، فيضحك وهو على نهاية الحزن والهم، كما قيل: (شر النوائب ما أضحك) وإذا كان هذا سائغًا خرج أبو تمام من قبح ما نسب إليه".

وهذا تفسير طيب، وهو دال على اضطرام نفس النسوة بالشعور، وشدة وقع الفاجعة عليهن، وأنهن لم يستطعن التحكم فيها، فقمن بأمور متناقضة متباينة.

وكلمة (الأسف) تدل على الحزن والغضب معًا كما يذكر الراغب [١]، فقول أبي تمام عندئذ لا يقع بعيدًا عن المثل المذكور(شر البلايا ما يضحك)، وليس كما ذكر الآمدي.

وينقل ابن المستوفي موقف المرتضى مما ذكره الآمدي مما حاول به دفع عدم التناسب بدعوى أن الحسان اللواتي عبنه غير من أشفقن عليه وأسفن على شبابه، فيقول: " قال المرتضى: وليس يحتاج لأبي تمام إلى ما تكلفه الآمدي، بل المناقضة زائلة عنه على كل حال، وأن كل من قد بكى شبابه وتلهف عليه من النساء هن اللواتي أنكرن شيبه وعتبه به، وما المنكر من ذلك ؟! وكيف يتناقض أن يبكي على شبابه ونزول شيبه منهن من رأين الشيب ذنبًا وعيبًا منكرًا ؟! وفي هذا غاية المطابقة؛ لأنه لا يبكي للشيب، ويجزع من حلوله وفراق الشباب إلا من رآه منكرًا معيبًا"[٢].

وما ذكره المرتضى مقبول، ولا إنكار عليه في شيء، فلا حاجة لما تكلفه الآمدي من معاذير، ولذا ختم به ابن المستوفي نقاشه في المسألة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى – تحقيق: صفوان عدنان الداودي – الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة: الأولى ١٤١٢ ه –صـ : ٧٥.

(٢) النظام ٢/٢٢٥– ٢٢٩، وينظر أمالي المرتضي صـ: ٦١١.

ولعل أبا تمام استشعر مثل هذا الادعاء عليه، فقال تعليلًا لعيب النسوة الشيب: (لقد أنكرن منكرًا وعبن معيبًا) فهؤلاء النسوة لم يفعلن أمرًا غريبًا مستغربًا، بل فعلن المعتاد المألوف في إنكار الشيب وعيبه، وعلى ذلك إذا كان البكاء حزنًا على مفارقة الشباب هو أمر معتاد، فكذلك عيب الشيب وإنكاره أمر معتاد، وعندئذ فلا تناقض بين اتصاف النسوة بالوصفين معًا.

وكذلك يلاحظ أنه في التعليل لم يكتف بقوله: (لقد أنكرن منكرًا) ولكن عطف عليه (وعبن معيبًا) وهذا دال على الرفض للشيب رفضًا مؤكدًا، مما يجعل النفس أكثر حزنًا وتعاسة لإصابته بالشيب.

وفي رأيي أن ما رآه البعض تناقضًا عند أبي تمام هو ما يؤازر الاتصال بين المعنيين، فكل معنى من المعنيين يجعل الشعور يشتد بالمعني الآخر والإحساس به أتم، فإنكار الشيب وعده من المعايب يدعو إلى الحزن على الإصابة به والبكاء على فقده الشباب، وكذلك الحزن على الإصابة بالشيب مقتضاه ولازمه أنه يراه منقصة وعيبًا.

وهذا يؤيد ما نقله ابن المستوفي عن المرتصي بأنه في غاية المطابقة، بل إنه لا يصح المعنى إلا به، كما يدل قوله: (لأنه لا يبكي للشيب.....).

ومن ذلك في تعليق ابن المستوفي على مأخذ في بنية الصورة الكنائية في قول أبي تمام:

فلو ذهبت سنات النوم عنه وألقي عن مناكبه الدثار

الشطر الأول من البيت كناية عن اليقظة والوعي والانتباه، وكذلك الشطر الثاني، ويذهب الآمدي أن الشطر الأول لائق بالمعنى الذي يقصده، أما الشطر الثاني فهو ردئ، يقول :" (قوله : وألقى عن مناكبه الدثار) لفظ ردئ، وليس من المعنى الذي قصده في شيء، وصدر البيت لائق بالمعنى، فلو كان أتبعه بما يكون مثله في معناه، بأن يقول: فلو ذهبت سنات الدهر عنه واستيقظ من رقدته أو انتبه من نومته أو انكشف الغطاء عن وجهه، لكان المعنى يمضي مستقيمًا؛ لأن من كان

في سنةٍ أو نوم أو مغطى على وجهه أو عينيه فإنه لا يبصر الرشد، ولا يكاد يهتدي لصواب، وإنما هذه كلها استعارات، والمراد بها هداية القلب وإبصاره وفهمه، وقد جرت العادة باستعارتها في هذا المعنى".

ويعلل عدم القبول بقوله:" فأما دثار المناكب فليس من هذا الباب في شيء؛ إذ قد يبصر الإنسان رشده، ويهتدي لصواب أمره وعلى مناكبه دثارٌ وعلى ظهره أيضاً حمل، ولا يكون ذلك مع النوم والرقاد والغطاء على العين؛ لأنه إنما يراد نوم القلب والتغطية عليه؛ لأن الإنسان إنما يقال له:" قد عمى قلبك " " قد عميت عن الصواب عينك " و " قد غطى على فهمك " ولا يقال: " قد غطيت بالدثار عن الصواب مناكبك، ولا ظهرك ".

ويضيف فيقول: " ولفظة الدثار أيضاً إنما تستعمل لمنع الهواء والبرد، لا لمنع الفهم والرشد"(١)

وبعد أن ساق ابن المستوفي رأي الآمدي نراه يصحح ما جاء به أبو تمام، ويراه مقبولًا، يقول:" وهذا الذي ذكره الآمدي غير منكر"، ويستدل له بقوله:" لأن النائم غالبًا يتدثر الدثار، ألا ترى إلى قوله تعالى:(يا أيها المدثر)(٢)، وكذلك قوله تعالى :(يا أيها المزمل)(٣) فيأتي البيت متعلقًا بأوله تعلقًا صحيحًا"(٤).

وفي تقديري أن لفظة (المناكب) لا علاقة لها بهذه الكناية المقصودة في الشطرين، ولا تؤدي إليها، ولا تستلزمها؛ لأنه لا علاقة لها بالإدراك والهداية والانتباه بخلاف القلب والعين.

فالأولى أن يؤتى بما يليق بالكناية ويناسبها ويعين عليها، من مثل العين أو ما هو سبيل الفهم والإدراك، لا المناكب أو نحوها.

---

(١) الموازنة ٢٣٥/١، وينظر النظام ٨/ ٨-٩.

(٢) المدثر : ١.

(٣) المزمل : ١.

(٤) النظام ٩/٨.

فكان حريا بالآمدي أن يقصر مأخذه على تقييد التدثر بالمناكب، وأن يقيد التدثر بدلًا من ذلك بمثل العين أو ما يدل على الوعي والإدراك.

وبالتالي يتعلق أول البيت بآخره تعلقًا صحيحًا، من ناحية أن كليهما كناية عن اليقظة والانتباه، وليس الأمر كذلك في صنيع أبي تمام، والذي أقره عليه ابن المستوفي، والذي ذهب إلى أنه عن طريقه يتعلق أول البيت بآخره.

الخاتمة

وتتضمن أهم النتائج، وهي ما يلي:

- اعتمد الدفاع عن أبي تمام في كتاب النظام لابن المستوفي على أسس ذات طابع بلاغي، وهي الحمل على ألوان بلاغية، وتحقيق الغرض المقصود، ومراعاة السياق، ومراعاة التناسب.
- وقد تنوعت الألوان البلاغية التي اعتمد عليها في الدفاع عن أبي تمام بين الاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي والحمل على الحقيقة دون المجاز والحذف والمبالغة.
- وأما الاعتماد على تحقيق الغرض المقصود فتناول تحقيق الغرض من استخدام اللفظ ومن المشبه ومن المشبه به ومن وجه الشبه ومن الاستعارة ومن إيراد المعنى.
- وكذلك مراعاة التناسب استخدم في الدفاع عن أبي تمام في دعوى انقطاع الصلة بين أجزاء النظم ، وكذلك في التناقض بينها.
- وكانت تلك الأسس البلاغية أدوات فعّالة في إبراز جمال وعمق شعر أبي تمام، مما يساعد في تفنيد الانتقادات الموجهة إليه، ويؤكد دور البلاغة كأداة فعّالة في النقد الأدبي وتطوير الإبداع الأدبي.
- كشفت الدراسة أن المآخذ التي وقفت عليها الدراسة من شعر أبي تمام لها ما يبررها ويبرهن لها مما يليق بأساسيات ومبادئ عمود الشعر العربي، فأبو تمام رغم تجديده في الأساليب البلاغية، لم يخرج في تلك المآخذ عن عمود الشعر العربي، فهو قد استخدم فيها البلاغة لتجديد الشعر مع الحفاظ على أصالة التقاليد الشعرية.
- وقد بين البحث أن دفاع ابن المستوفي وغيره كان مبنيًا على هذا التوازن بين التجديد والتمسك بمبادئ البلاغة.

- كانت الأسس المعتمد عليها في الدفاع عن أبي تمام تبين معان متعددة ومستويات تأويلية متنوعة، مما يعكس عمقًا فكريًا وإبداعًا بلاغيًا في نصوصه.
- الدور المهم الذي تؤديه البلاغة التطبيقية في النقد الأدبي، خصوصًا في الدفاع عن شعراء مثل أبي تمام، وهي وسيلة لفهم النصوص الأدبية وتأويلها بطريقة تعزز من قيمتها الفنية.

أهم المراجع

- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعصام – تحقيق د: عبد الحميد هنداوي – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)- الطبعة: الأولى، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.
- البيان والتبيين للجاحظ- الناشر مكتبة الهلال بيروت ١٤٢٢هـ.
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة- الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ-١٩٩٣م.
- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني للدسوقي- تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي- الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
- حديث الشعر والنثر د/ طه حسين – الناشر: مؤسسة هنداوي ٢٠١٣م.
- الحيوان للجاحظ- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- الناشر: دار الجيل ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- شرح الصولي لديوان أبي تمام – تحقيق: د/ خلف رشيد نعمان- الطبعة الأولى- العراق- وزارة الإعلام- سلسلة التراث.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – الناشر: دار المعارف [سلسلة ذخائر العرب (٣٥)] الطبعة: الخامسة.
- شرح مشكلات ديوان أبي تمام للمرزوقي- تحقيق: د. عبد الله سليمان الجربوع- الناشر: مكتبة التراث بمكة المكرمة- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.
- شرح المعلقات السبع للزوزني – الناشر: دار إحياء التراث العربي- الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار– الناشر: دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
- الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم– الناشر: المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.
- علم الدلالة : النظرية والتطبيق: دراسة دلالية تأصلية نقدية د. فايز الداية – دار الفكر دمشق– الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى – تحقيق: صفوان عدنان الداودي – الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة: الأولى ١٤١٢ ه.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي – تحقيق: السيد أحمد صقر– الناشر: دار المعارف – الطبعة الرابعة [سلسلة ذخائر العرب (٢٥)]، المجلد الثالث: تحقيق : د. عبد الله المحارب (رسالة دكتوراه) – الناشر: مكتبة الخانجي – الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني – تحقيق: على محمد البجاوي– الطبعة الثانية– المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٥هـ.
- النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام د/ خلف رشيد نعمان– الناشر: وزارة الثقافة والإعلام ببغداد[سلسلة خزانة التراث] الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري – الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة– الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني – تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي– الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـــوع	الصفحة
١-	ملخص	١١٩٧
٢-	Abstract	١١٩٨
٣-	مقدمة	١١٩٩
٤-	كلمة عن " ابن المستوفي" وكتابه النظام	١٢٠٢
٥-	المبحث الأول: الحمل على لون بلاغي	١٢٠٥
٦-	المبحث الثاني: تحقيق الغرض المقصود	١٢٢٩
٧-	المبحث الثالث: مراعاة السياق	١٢٤٩
٨-	المبحث الرابع : مراعاة التناسب	١٢٥٦
٩-	الخاتمة	١٢٦٤
١٠-	أهم المراجع	١٢٦٦
١١-	فهـرس الموضـوعـات	١٢٦٨